د. رونيه اللندي

أخطر مراحل الطفولة

ترجمة

إبراهيم جمال

صلاح أدهم

تقديم ومراجعة

د. نادية حامد عبد الحليم

الكتاب: أخطر مراحل الطفولة

الكاتب: د. رونيه اللندي

ترجمة: إبراهيم جمال، صلاح أدهم

تقديم ومراجعة: د. نادية حامد عبد الحليم

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ــ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

اللندي ، د. رونيه
أخطر مراحل الطفولة/ د. رونيه اللندي،ترجمة: إبراهيم جمال،
صلاح أدهم/ تقديم ومراجعة: د. نادية حامد عبد الحليم
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٢٤ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٥ – ٧٠ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان   رقم الإيداع : ٨١٨٢ / ٢٠٢٠

أخطر مراحل الطفولة





تقديم

الطفولة من أهم المراحل التي يمر بها الفرد فهي أساس تشكيل كثير من معلوماته واتجاهاته وقيمه ومبادئه، وبقدر ما يجده الطفل في تلك المرحلة من رعاية واهتمام من قبل القائمين على تربيته بقدر ما يحقق من نمو سليم في المراحل التي تلي تلك المرحلة كالمراهقة والرشد.

ونظراً لأهمية هذه المرحلة ، وما يترتب عليها من آثار تربوية تحدد المعالم الأساسية للشخصية الإنسانية بشكل عام ؛ فإن من أهم أولويات البحث التربوي الجاد الاهتمام بكل ما يحقق التكيف والنمو السليم للطفل في هذه المرحلة ولعل الاهتمام بثقافة الطفل التي تستند عليها سلوكياته وتصوراته للعالم المحيط به من أقوى تلك الأولويات التي تلح على الباحثين أن يجعلوها الهدف المنشود من دراساتهم وأبحاثهم التربوية لا سيما في هذا الزمان الذي يمارس فيه على الطفل صور شتى من الأفكار والممارسات التربوية التي ترجع إلى ثقافات خطيرة تمس هذا الكيان الطفولي وتؤول به إلى الهاوية .

وتعتبر الطفولة من أهم المراحل التي يمر بها الإنسان، حيث يوضع فيها أساس نمو الشخصية فيما بعد، فإذا كانت عوامل النمو سليمة كان نمو الشخصية سوياً، ففي هذه المرحلة من عمر الإنسان يوضع أساس

مشاعر الفرد بالحب والقيمة والثقة في النفس والخوف والشعور بالأمن ، ومن هنا تنبع أهمية هذه الدراسة من كونها تعالج موضوعاً من أهم الموضوعات التي يتعرض لها الطفل وهو الخوف الطفولي من حيث دوافعه ومثيراته والثقافة التي تنتج عنه ومدى تأثيره في شخصية الطفل . هذا ويعاني بعض الأطفال من أساليب تربوية خاطئة تؤدي إلى توريث ثقافة غير صحيحة يؤمن بها الطفل فتحد من إرادته وعزيمته، وتودع فيه شخصية انهزامية خائرة القوى ، إنها ثقافة الخوف التي ما زالت تقف وراء الكثير من الممارسات السلوكية التي لا تبرير لها منطقياً ، ولا أدل على ذلك من الخرافات التي نسجتها بعض الأمهات من أجل فرض السيطرة والطاعة على أبنائهن، فتخوفهم بالغول تارة والجن والأرواح الشريرة تارة أخرى حتى أصبحت مثل هذه الموروثات الثقافية المخيفة جزءاً لا يتجزأ من الثقافة التي يؤمن بها غالبية الكبار مع علمهم ببطلانها وعدم مصداقيتها، وهنا تكمن أهمية هذه الدراسة في الكشف عن أهم الممارسات والأساليب التربوية الخاطئة التي يمارسها المربون على أطفالهم ، ومدى تأثيرها على شخصياتهم وتزويدهم بطرق مواجهة ثقافات الخوف الطفولي. لذلك فالاستثمار في رأس المال البشري أحد الركائز الأساسية لتحقيق التنمية، وإذا كان أطفال اليوم، هم شباب الغد، الذين يقع على عاتقهم مسؤولية نهضة المجتمع وتقدمه، فإن الاهتمام بهم، وتنمية قدراتهم يمثل أهم المداخل الضرورية لنجاح أي استثمار في رأس المال البشري. ولاشك أن إعلاء قيمة الإنسان تبدأ من سنوات العمر الأولى في مرحلة الطفولة، حتى يصبح قادراً على تحقيق أهدافه من

خلال تبلور شخصيته ودوره وإسهاماته. لذلك فإن النظرة الجديدة للطفولة قد أصبحت في هذا العصر مظهراً من مظاهر تقدم الأمم ، وبروزها في ميادين التربية وعلم النفس ، بنوعية التحليلي والتجريبي؛ هذه النظرة التي لا تعتبر الطفل كرجل مصغر، تنطبق عليه نفس الأحكام التي تنطبق على الكبار، بل تستند على اعتباره مخلوقاً صغيراً له استعداداته ومواهبه الخاصة، كما تستند على معرفة طبيعة هذا المخلوق، ودراسة ميوله وغرائزه الفطرية وتأمين حاجاته التي تتطلبها طبيعته.

من هنا يكتسب كتاب " أخطر مراحل الطفولة" أهميته، فمؤلفه الدكتور رونيه اللندي طبيب معروف وعالم نفسي، وله مؤلفات عديدة في التربية وعلم النفس . تلمس حبه للطفولة وإيمانه بأهميتها من خلال فصول كتابه، كما تستشعر تعمقه في فهم الطفولة ، وسبر أغوار مشاكلها، وتدرك بعد هذا وذاك مقدار إحاطته بمختلف العلوم التي تتصل بالطفولة من اشاراته الذكية ، واستشهاداته المفيدة .

ولقد اختارت (وكالة الصحافة العربية – ناشرون) هذا الكتاب من بين الكتب التربوية لأهميته، فالكتاب الذي صدرت ترجمته العربية لأول مرة في سوريا في عام ١٩٥٢، أعيد طبعه في أكثر من عاصمة عربية، وتعددت طبعاته بأكثر من لغة، مما يؤكد قيمته العلمية، وهذا سر ما لا قاه من رواج في الغرب في طبعته الإنجليزية، وأيضا لقيمة الأبحاث التي قدمها الكتاب ، وقد أثبت علم النفس الحديث أن الكثير من الاضطرابات النفسية التي تنتاب الأشخاص ، ترجع أسبابها إلى أمراض

جسمية ، عن طريق المعالجة النفسية والوسائل الإيحائية .

ويلاحظ أن الكتاب يتعامل مع الطفولة باعتبارها المرحلة العمرية الممتدة من الولادة وحتى المراهقة، وهي عنده ليست مجرد مرحلة بيولوجية بل مرحلة نفسية أيضا وهذا مما يميز الكتاب، وإذا كانت كل فصوله تبدأ بكلمة "الولد" فهو لا يقصد بها الصبي الذكر دون البنت، وإنما يعممها على الطفل بعامة سواء كان ولدا ام بنتا. ومن أهم مزايا الكتاب كذلك أنه لا يعتبر التربية نوعا من التدريب، يهدف إلى طبع الأطفال بطابع الراشدين ونظامهم الاجتماعي والعقلي والروحي ، كما كانت الفكرة السائدة لدى أكثر المربين ، فالدراسات النفسية والتربوية أثبتت إن مرحلة النمو الجسمي والعقلي والعاطفي للطفل تختلف اختلافا بينا عن مرحلة الراشدين ، ومع ذلك فإن عليه أن يخضع لمقتضياتها دفعة واحدة .

هذه المقتضيات تحددها البيئات التي ينشأ فيها الطفل، وخاصة البيئة العائلية فعليها أيضاً أن تفسح المجال إلى مخلوق لا تتشابه حاجاته وانفعالاته مع شروط المرحلة التي بلغتها. وبالطبع فإن ضمان التوازن يقتضي تكييفاً متناسباً يلائم بين الطفل ومحيطه الأسري فإذا كان هذا المحيط قاسياً غير مدرك لمعنى الطفولة وحاجاتها ، فإنه لا يتيح للطفل أن ينمو نمواً طبيعياً.

والغريب أن معظم المؤلفات التربوية قد تجاهلت هذه الناحية الهامة، مفترضة أن على الطفل وحده أن يتحمل تبعات هذا التلائم ، أما

رأي الدكتور رونيه اللندي فيتلخص في أن على الكبار أن يتحملوا بعض المسئوليات فأنهم هم الذين أوجدوا هؤلاء الأطفال ، وهم أوسع أدراكاً وأكثر معرفة وخبرة . و إذا كانت إمكانياتهم الحيوية لم تتأثر في مجراها الطبيعي بوجود الطفل الذي تلقى عنهم بالإرث صفاتهم الطبيعية ، اعتبر هذا الأخير ، الشماعة وقد تركت عليها أعمالهم آثاراً لا تمحى . وفي الحقيقة ، أن مسؤوليات الكبار عظيمة إلى درجة يقول معها مؤلف الكتاب : "إذا ما كان الطفل شرساً فالوالدان أولى منه بالصفع "، ويرى الكتاب أنه في الإمكان تتبع الأخطاء العائلية وإصلاحها ، بينما للتماس النفسي نتائج دائمة الأثر في تطور شخصية الطفل ، لأن تكوينه العقلي شديد الحساسية والانفعال .

ويربط الكتاب المشكلات التربوية بمؤثراتها النفسية (يستخدم الكتاب كلمة عاطفية في هذا السياق بدلا من نفسية) بشكل تبرز فيه الأعمال والانفعالات في هذا الميدان حاوية عوامل لا شعورية كثيرة ، فالميدان العاطفي ذو أهمية كبرى ويشكل حقل المكتسبات الجديدة في علم النفس . بحيث يمكن القول أن علم النفس الحديث ، قد أكتشف عالم الأحاسيس والمشاعر والغرائز ، بوضعه أساليب اكتشافيه غير مباشرة : كالتجارب ، والتحليل النفسي الخ ...

لذلك بدأت معظم القضايا تأخذ شكلاً جديداً معتمدة على حلول متعددة ومختلفة . أما في القضايا التربوية فقد أصبحت الاندفاعات العميقة للغريزة واللاشعور هي التي تنسجم أو تتعارض ذاهبة من الطفل

إلى الوالدين ، ومن التلميذ إلى المربين ، ولا يمكن أن يتم شيء ذو أثر وأهمية إلا بتعاون هذه القوى . وإدراكا من مؤلف الكتاب لكل هذه المستجدات فإنه يركز على دراسة جو التربية العاطفي ، ملاحظا شعور الكبار نحو الأطفال ، وشعور هؤلاء نحو الكبار مع المشاكل التي تنجم عن ذلك في الاسرة والمدرسة والمجتمع . ثم يوضح الطريق الذي يجب انتهاجه والشروط التي يجب تطبيقها لتقويم أهم تصرفات الأطفال الشاذة أو الرديئة. فيبدأ الكتاب بفصل عنوانه " موقف الكبار حيال الصغار" يليه المقابل له " موقف الصغار حيال الكبار"، قبل أن يتحدث عن مشكلات الأسرة باعتبارها البيئة الحاضنة للطفل، ثم تتوالى الفصول فيقدم في أربعة عشر فصلا أنواع مختلفة للأطفال مبينا أسباب مشكلاتها وطرق التعامل معها وهذه الأنواع هي: الطفل الكسول، و الكذوب، و السارق، وسيىء الطباع، و الفاسد وهو يقصد هنا الفساد المرتبط بالجنس، فوفقا للمصطلح الشائع تداوله الآن نعتقد أنه يقصد به "المتحرش"، وبعده يتعرض للولد الخجول ثم الجبان، و الطائش ويقصد به الشارد أو قليل الانتباه دائم السرحان، والأرعن أو الأحمق، و الصعب ويطلقها على الولد الذي يمتنع عن تناول كل ما يقدم له من أنواع الطعام، ثم القذر الذي لا يهتم بنظافته الشخصية، والولد ذو الحركات العفوية وهو نوع من سوء الطباع،

وهكذا تبدو الصفات التي يتناولها الكتاب إما صفات أخلاقية مثل اللص والمتحرش والكذوب، وإما نفسية مثل الخجول والكسول والجبان والأحمق، ووفقا للكتاب فكلها صفات ليست أصيلة في الطفل بل

مكتسبة تنتقل إليه كنتيجة لطبيعة تعامل الأسرة والمدرسة معه، وبالتالي يمكن تجنبها لينشأ الطفال أسوياء.

وينهي الدكتور رونيه اللندي كتابه بفصل بمثابة الخاتمة، وعنوانه " تدابير تربوية جماعية" يوحي بمضمونه وبهدف الكاتب منه، فهو يحدد مسئوليات الوالدين والمربين في المدارس تجاه الطفل، ويضيف إليهما المجتمع كله، لا تتحقق التربية في نطاق الأسرة فقط كما لا يمكن تحقيقها عن طريق المدرسة وحدها. بل لا بد من تعاون الاثنتين مع المجتمع على أداء هذه المهمة. فالمعلم في المدرسة ، والأولياء في البيت لا يتمتعون بالتدريب النفسي الكافي، ولا بالوقت اللازم والوسائل الضرورية ليستطيعوا الاهتمام المطلوب بدراسة شئون الأولاد دراسة تامة وفهم نفسياتهم. لذا يتحتم على المجتمع أن يضاعف اهتمامه دائماً في القضايا التربوية التي عليها مستقبل الإنسانية بكامله، وأن يعمل على إيجاد المنظمات والإصلاحات التي توحي بها مكتشفات علم النفس الحديث . ويختتم الكتاب بالتأكيد على إمكانية القيام بتحقيق التدابير الاجتماعية عن طريق اجراء اصلاح خلقي جمعي، يرتكز على معنى القيمة الشخصية والنجابة والحب . وعلى المجتمع أن يساهم أيضاً بقسط كبير من اصلاح الأولاد غير العاديين ، وتتطلب هذه المهمة برنامجاً واسعاً للعمل بوساطة المنظمات والمؤسسات العديدة .

د. نادية حامد عبد الحليم

أستاذ التربية الحديثة



الفصل الأول

الكبار في مواجهة الصغار

يتأرجح شعور الكبار نحو الأطفال بين التعاضد والتنافر. يرجع التعاضد إلى إن الكبار يستطيعون أن يميزوا في الطفل مقدرات مستقبل شخصية مشابهة لهم، هي امتداد لحيويتهم وفعاليتهم. ذلك إلى جانب تضامن شخصي، هو ذكريات ماضيهم الخاص الذي يتمثل في الطفل. فيظهر الطفل المائل أمامهم وكأنه الذكرى الحية لطفولتهم الغابرة، ويشعرون أنهم أصبحوا أكثر كمالاً وأتم حالاً ، فإذا ما خالف الطفل الكبار فكراً أو عملاً، اعتبروه خصماً أو منافساً، ورأوا فيه الشخص الذي سيخرج على تقاليدهم، وعندئذ يرون فيه صورة مجسمة لكل ما كانوا يكرهونه من تلك الطفولة: كضعفهم، وميولهم المكبوتة، ورغباتهم المقموعة، فيرونه هدفاً ممقوتاً. وقد تختلف اتجاهاتهم باختلاف شخصياتهم وأمزجتهم . فالمسنون ، كالجدود مثلا ، يمتزجون مع الأطفال برغبة ظاهرة ، لأن عناصر الكره عندهم قد سبق أن ثبتت في اتجاهات أخرى . وهناك عوامل خاصة تتعلق بالآباء والأبناء. فشعور التضامن في الأسرة يقوي روابط النسل، وإذ يشعر الآباء أن أولادهم قطع من أجسادهم، وتزداد رغبتهم في النظر إليها بقدر ما يرونه في هؤلاء الأبناء من الشبه لهم. كما أن لديهم رغبة غامضة بالأستمرار في الحياة والخلود في هذه القطع من الأكباد، كما أنهم يرون فيهم الوارثين

لأعمالهم ومشاريعهم وأملاكهم، ويتمنون أن يكون مستقبل أبنائهم خيراً من حاضرهم هم أنفسهم. وكذلك فهم يتخيلونهم أكثر تقدماً في طريق الكمال الاجتماعي والعقلي والخلقي ، كما أنهم يدفعونهم دفعاً للوصول إلى هذه المرتبة . وبالاختصار فإنهم يورثون أبنائهم طرق تفكيرهم الخاصة ، راغبين إليهم أن يحققوا كل ما يبدو لهم سامياً وجميلاً مما لم يستطيعوا هم أنفسهم تحقيقه. وهذه الرغبة هي عنصر المحبة الذي يقوى بصورة طبيعية بسبب اختلاف الجنس، فالأب يفضل عادة البنات، والأم تفضل البنين، لأن كلا منهما يجد في ولده انعكاساً اللزوج الذي أحبه، ولان الشخص الطبيعي ينجذب إلى شخص من الجنس الآخر

باعتباره متمما له، محاولاً الاتحاد معه تحقيقاً لاتساع ذاتيته (الأنا) وليحقق في الوقت ذاته انتشاراً لجنسه على أوسع نطاق ممكن .

ولا يكون الحب الأبوي مفيداً دائماً ، إذ أنه غالباً يأخذ شكل تملك أناني طاغ ، يمكن أن يسهل الانتقال إلى حالة لا تخلو من الخطورة التي قد تؤدي إلى الكره البنوي . فالطفل لا يكلف والديه فقدان كثير من المتع فحسب، وإنما هو فضلاً عن ذلك الوارث الذي يتهيأ لدفن موجديه، بدلا من أن يعتني بشيخوختهما، كما انه بمجيئه يفعل أكثر من ذلك، فوجوده يؤدي إلى الإخلال بالتوازن العاطفي بين الوالدين، فيحول بهجة التحابب القوية بينهما إلى روابط عاطفية فاترة.

وقد تبدو على بعض الآباء مظاهر الغيرة من أبنائهم، بسبب ما يحاطون به من عطف الأمهات، وكلما كبر الولد، ازدادت مظاهر هذه

الغيرة ونمت ، ثم ينفجر أنون هذا الخلاف عندما يصل الطفل إلى سن البلوغ. وعلى العموم ، فإن الآباء يحاولون، أن يستبقوا الولد في حالة سن الطفولة وقيودها، فهم يعاملونه معاملة الطفل، حيث يمنعونه مثلا من ركوب الدراجة ، ويمنعون عنه المال ، ويحرمون عليه الخروج ، وسواء أكانت هذه الإجراءات قاسية أو مغلفة بألف غلاف من العطف والمحبة ، فإنها لا تخلو من تجن على نمو الطفل ، وتفتح شخصيته . ولقد كان الآباء في بعض الأمم القديمة يلجئون إلى خصى أبنائهم الأبكار، مدللين بذلك على الطبيعة التناسلية لهذا الكبح المعنوي إلى استخدموه كوسيلة للتعبير عن معارضتهم. ويندر أن يسمح الآباء من تلقاء أنفسهم بالحرية الملائمة للراشد، إلى ولدهم ولو كان شاباً، ما لم يضطرهم إلى ذلك ضغط أو إكراه. وهناك أسباب كثيرة تجعل الطفل بغيضاً إلى والديه، منها أن الذين قاسوا في طفولتهم آلام الغيرة نتيجة اتجاه عطف الوالدين نحو اخوتهم أو اخواتهم الصغيرات ، كبتوا في نفوسهم مشاعر الحسد والحقد، حتى إذا كبروا أخذت هذه الأحاسيس المكبوتة تظهر من جديد حيال أبنائهم أنفسهم. وفي هذه الحالات المرضية يصبح الولد هدفاً حقيقياً للحقد والكراهية بصورة لا شعورية .

ومن الصعب جدا في موضوع كهذا تعيين حدود بين ما يحدث كنتيجة للحالات المرضية أو كنتيجة للحالات العادية ، إذ بينما يكون الولد محاطاً بعطف الوالدين وعنايتهما بصورة طبيعية ، يصبح هدفاً لنقمتهما وكرههما عند حدوث خلاف زوجي أو طلاق مثلاً .

ويذهب بعض الآباء إلى أبعد من ذلك في إظهار قسوتهم نحو أبنائهم بالضرب المبرح ، والتعذيب الذي قد يؤدي أحيانا إلى الموت . وقلما نرى الرأي العام يستسيغ تدخل السلطان للحد من سيطرة الآباء مهما غالت في جورها وقسوتها ، مدفوعا إلى ذلك بسائق الميل الغريزي لتأييد سلطة الآباء التقليدية المقدسة . وإذا كان الولد عرضة لقسوة الكبار، فليس لكونه في نظرهم عقبة أو شخصاً مكروها فحسب، بل لسبب جوهري آخر، هو كونه ضعيفاً، عديم الظهير؛ فيجد فيه المبتلون، بجنون السيطرة والأنانية، الضحية المنشودة، الضعيفة العاجزة عن رفع صوتها بالشكوى. إن الولد ليشعر بحاجة إلى الإنصاف، ويخشى كثيراً شراسة الكبار، حتى أنه ليفضل الاعتقاد بعدالة العقاب الواقع عليه، خشية قسوة أشد وأدهى. ومن جهة أخرى فالقسوة الأولى ذاتها لا تزال حية في نفسه، فإذاما اضطهد أزدوجت نفسيته ، واتحدث جزئياً مع نفسية الكبار القاسية، حتى انه ليجد شيئاً من اللذة في الآلام التي يقاسيها من اضطهادهم . فآلية هذا الانسجام تؤول به بدوره إلى أن يصبح هو نفسه مضطهدا قاسياً حينما تتهيأ له الظروف؛ ولهذا كانت عادة تعذيب الأولاد، والقسوة عليهم، مدعاة لخلق مجتمع مصاب بجنون القسوة والاضطهاد نحو الأبناء . وكثيرا ما يحدث أن يعذب الولد من قبل مربيته أو أستاذه، أو يضربه رفقاؤه فلا يشكو إلى والديه حتى ولو كانا على استعداد لحمايته، والدفاع عنه. وفي الحقيقة فإن الوالدين يميلان غالباً إلى الاعتقاد بان الولد مخطئ، وأنهما في سبيل الضرورة التهذيبية يقفان بجانب الكبير ولو كان باغيا معتديا .

ويكشف التحليل النفسي عند كثير من الأساتذة والمعلمين والمربيات والنظار والخدم عن ميلهم البارز لجنون السيطرة ، ويعد هذا بحق آفة خطرة على الطفولة . وهناك نماذج مختلفة لمجانين السيطرة فمنهم الذين يحبون الملاحم والدم ، والبطون المبقورة ، فيرغبون أن يكونوا جزارين أو صيادين أو جلادين أو جراحين ، إلخ .. ومنهم المصابون بأمراض عصبية ، فيرغبون أن يتخذوا مهنة لهم : دفن الموتى أو حمل النعوش ، أو التشريح ، أو ما شابه ذلك . أما الذين يجدون في الاستعباد لذة أكثر من الذبح والقتل فيرغبون في أن يكونوا ممرضين ، أو خراساً للمجانين أو سجانين ، بل أكثر من كل ذلك مربين ؛ إذ ليس هناك من حالة تمنح صاحبها شعوراً بالتسلط

أكثر ممن يجلس على عرش صف يضم عدداً من التلاميذ الوجلين ، برهبهم استبداد طاغ جبار . ولما كان جنون السيطرة متصلا بنمو ناقص للغريزة الجنسية ، فغالبا ما يكون متحداً مع حب الجنس للجنس ، كما يكون ظاهرة نفسية ، يكشف عنها التحليل لدى كثير من المربين . كثير من الراشدين يذكرون ما لا قوة في طفولتهم من أنواع الاستغواء والاستدراج وهذه آفة أخرى خطرة على الطفولة ، لأن الغريزة الجنسية ، في حال تكوينها ، تبدو سهلة الانحراف ؛ أن مجرد التماس مع شخص مبتلى بالحب الجنسي ، ول كان خالياً من كل علاقة مشبوهة ، ينمي عند الولد بصورة إيجابية نفسية ، تجاوباً عاطفياً خطيراً . وهكذا تنشأ أجواء عاطفية فاسدة وشديدة الخطورة على الناشئين ، كما نجد الطفولة كثيرة التعرض لشذوذ الكبار الذي يكون خطراً في أغلب الأحيان ؛ و

إذا شئنا أن نكون منصفين ، يجب أن نعترف أن أخطاء الأولاد كثيراً ما تكون انعكاسات لأخطاء الآباء والمربين .

الفصل الثاني

الصغار في مواجهة الكبار

يتكيف شعور الطفل نحو الكبار بما يتناسب مع مراحل نموه فالرضيع يتكيف شعوره بما يحيط به، تحت تأثير تسلط غرائزه، فيبدي نحو أمه أو مرضعته نوعاً من الشهوة الغريزية، يمكن اعتباره حباً تملكياً متطرفاً، والطفل الصغير ينتظر الشيء الكثير من هذا الشخص الذي بات موضع حبه وتعلقه : كحياته والعناية به ، وحاجياته ، دون أن يكون لديه أية قدرة على مقابلة ذلك بشيء من عنده . فضلاً ، عجزه عن تقدير الوسائل التي تقدم له بموجبها هذه الخدمات حتى وتقدير حدودها ، ويعتبر كل ما يناله نوعاً من المعجزات ، ولكنها معجزات دائمة وبسيطة ، أو مألوفة ذات طابع معلوم ؛ وسبب ذلك كله هو جهله بمعرفة معالم الحقيقة . والطفل في هذه المرحلة من حياته يشعر بكره شديد لكل ما يقف حائلا بينه وبين رغباته ؛ وهذا الكره نوع من الكراهية المطلقة التي لا تتناسب مع مسبباتها ، كراهية عامة لا يرضيها إلا زوال العقبات المعترضة ، وغالباً ما يكون رمز هذه العقبات والده الذي يحول أحياناً بوجوده ، بينه وبين أمه التي يراها رمزاً لغذائه ، كما يرى في إخوته وأخواته نفس العقبات . وشعور الرضيع هذا يكون بدرجة من العنف لا يعرف معها حداً وسطاً ، فهو إما جامح متطرف ، أو ضعيف هامد .

منذ الحين الذي تبدأ فيه الكلمات والخطوات الأولى لدى الطفل ، سابقة لفطامه ، أو مرافقة له . تظهر معها غرائز اجتماعية تعمل على تلطيف هذه الانفعالات الأولى . وتبدأ في هذه المرحلة عناصر التجاوب والمقابلة في نفسية الطفل ، ويظهر معها شعور العدالة بالغاً حداً كبيراً وهو الذي سيكون أساساً للتربية الاجتماعية بكاملها فيما بعد . يبدو الأطفال مرهفي الحساسية حيال العدالة ، أما إذا اضطرب هذا الشعور حتى لدى الكبار ، عقبة دائماً انحراف عميق في السلوك . وهذا الشعور بالعدالة ، يجعل الطفل عندما يكبر يتقبل وجود منافسيه القدماء برضى وارتياح ، حتى أنه ليصل إلى درجة يسعى معها إلى أن يعوض عن حقده القديم برغبة التعاون عن طريق المحاكاة والاقتداء والتنافس المشكور ، والتوافق ، والشعور بالمسؤولية ، الخ ...

وهذا ما يساعده في المستقبل على الاندماج في الجماعات الإنسانية بهدوء واطمئنان ، وفي الوقت نفسه تتهذب طباعه ، وتتهيأ لقمع انطباعاته الأولى في العداء والرغبة الجامحة ، ويتعلم تصنيف انفعالاته والتصرف بها ، وعدم اظهار شيء منها إلا بما يتلاءم والوسط الاجتماعي ، وتصبح ملكاته العاطفية سهلة مرنة . ومع ذلك فالحاجة إلى الاستمرار في مراقبة النفس ومحاسبتها يمكن أن تخلق لديه ، إذا لم يكن التوازن العاطفي متيناً ، نوعاً من الألم المقيم المشابه للشعور الدائم بإدانة النفس ، والذي إذا ما طال أمده أمكنه أن يقلب الدوافع الحيوية المكبوتة رأسا على عقب مفسحاً المجال لحالة خطرة من الميل لإيذاء النفس . ومع أن الطفل يخرج تدريجياً من نظرته للعالم كشيء سحري

عجيب ، ليتفتح عنه إلى تفهم الأمور على وجهها الصحيح ، فإنه ليبدو مستعداً لإظهار إعجابه بالكبار على اعتبار أنه مرتبط بهم ، كما يرتضي الخضوع لسلطنهم متحلياً عن متطلباته الجامحة القديمة تحت شرط واحد هو ضمان العدالة . إذ أن الجور في نظره هو كل إكراه لا يرى فيه طابع العدالة ، وهذا ما يجعله ينحرف عن قبول " العقد الاجتماعي " ويعيده إلى أحقاده القديمة ، ويبحث الطفل بصورة عفوية بين الكبار عن مثل يقتدي به ، ويحيطه بهالة من التقدير والحب ، ويج في ذلك وسيلة لاختصار التفاوت الذي يفصل بينه وبين هذا الشخص . ولتحويل احساساته السلبية فهو يصرح مثلاً ، أنه يريد أن يصير رجلاً " مثل الأب " وأن يعمل كل شيء على غراراه . وفي الوقت الذي لا يستطيع فيه تغيير احساساته الأساسية بصورة تامة ، وخاصة إذا لم يهتم الوالد لا بهذا الإعجاب ، ولا بهذا الحب ، إنما لديه نوع من الخوف يضاعف شعور الكراهية الأولية فينشأ " مركب الرئيس " وهو مقدمة لمركب " أوديب " الشهيرة . ولا تتكون هذه العقدة إلا مع ظهور الغريزة الجنسية بمعناها الحقيقي . وهنا يصبح على الولد أن يبدأ يبذل الجهود لأخذ مكانه بين الراشدين ، ولم يعد ليعتمد على ضعفه بل علا قوته . وفي هذه الفترة تبدأ عادة ، أشد الخلافات بين الاتراب ، كما تظهر أيضاً الدوافع الغرامية محطمة حدود نطاق الأسرة ، باحثة عن الانطلاق . ترافق هذا التطور مصاعب جمة ، ومشاكل كثيرة ، ينتج عنها فيما بعد مظاهر أمراض عصبية متنوعة . ومع ذلك فمنذ هذه اللحظة يبدأ الولد بمحاكمة الكبار غير مقتصر ، كما في السابق ، على الخوف منهم

والإعجاب بهم . ويمكن القول أن شعوره نحوهم لا يختلف عادة عن شعورهم نحو بعضهم بعضاً ؛ على أن الكثيرين من هؤلاء المراهقين الذين لا يبلغون دفعة واحدة درجة طبيعية من الإدراك الواقعي يحتفظون بشعورهم القديم ، ولما يعجزون عن فهم أقاربهم على حقيقتهم ، فإنهم يشعرون حيالهم بمشاعر انطباعاتهم الأولى أيام الطفولة معتبرين انهم شخصيات سامية خيرة أو مرهوبة ، ويبقون متعلقين هكذا بآبائهم واجدادهم ، وهم مغمورون بشتى الخيالات والترهات الصبيانية . وبصورة خاصة فإن شعور إدانة النفس المتعلق بميول الطفل الأولى للتمرد على سلطة الوالدين ، يمكنه أن يولد عند الطفل حالة عصبية تشنجية . لقد عرفت أختين عمر أولاهما خمسة وستون عاماً والأخرى سبعون كانتا تتقبلان التوبيخ والعقاب من والدتهما البالغة تسعين عاماً ، كما لو كانتا طفلتين صغيرتين وبصورة عامة ، أن كل تقدير مفرط للوالدين أي كل شعور يتجاوز الاحترام والتوقير الطبيعيين عند البالغين ، يستر وراءه تمرداً كميناً وضغائن منسية .

ويمكن القول أن ما يثير انفعالات الأطفال العاطفية حيال الكبار هو ما يلقونه من هؤلاء من الزجر والإكراه . ومن البديهي أن ليس من دواع تدفع الطفل لكره الكبار الذين هو بحاجة إليهم في كل ما ينقصه ، كما أنه ليس من داع يدفع الكبار لبغض الأطفال في كل ما يبدو منهم

من أعمال مزعجة . و إذا كان الطفل يرتبط بالكبير بروابط إيجابية ، فما ذلك إلا بدافع الثقة والعرفان والإعجاب . وفي الحقيقة يستطيع الكبير أن يرى في الطفل ذكرى طفولته الحية ، ولكن هذا لا يستطيع أن يرى نفسه في الكبير لأن الكبير قد بلغ مرحلة من العمر لم يبلغها هو بعد. أما إذا استطاع الولد التفكير أنه سيصبح يوماً ما شبيهاً بهذا الكبير ، كان ذلك بدافع تعليل عقلي ، لا بدافع تجاوب عاطفي . لذلك نرى أن شعور الطفل نحو الكبير أكثر عفوية ، وأشد صفاء مما هو عند الكبير .

الفصل الثالث

مشاكل أسرية

إن الطابع الأساسي الذي يميز الأسرة عن غيرها من الجماعات الإنسانية (الدينية والمهنية الخ) هو ما تتمتع به من صلاحية وسلطة . فليس في داخلها قوانين أو دساتير ، ولكن سلطة الأب وإرادته هي القانون في الأسرة . ولا تتدخل السلطات العامة باعتبارها حامية القانون في شؤون الأسرة إلا في حالة وقوع جرم ما ؛ وقد كان المجتمع القديم يخول رب الأسرة حق الحياة والموت على أفراد أسرته . وهكذا كان الطفل تحت رحمة الوالدين ، (حتى إذا لم يجد بقربهما المعاملة الملائمة لتربيته اصطدم بلينهما واهمالهما ، أو لشدتهما وقسوتهما) .

أما الإهمال، فأشد ما يكون خطراً في أيام الطفولة الأولى ، فرضاعة غير منتظمة ، أو تغذية ناقصة أو رديئة أو فطام في غير أوانه يلحق أشد الأذى بنظام الجهاز الهضمي للرضيع . وأن جميع الانطباعات التي يشعر بها الطفل في هذه الفترة من حياته ، (لكونها غامضة وقريبة من حالة اللاشعور) تترك في نفسيته المرنة أثراً بالغاً قد يدم مدى الحياة ولو أصبح الألم منسياً والخطأ مصححاً . ويظل هذا الانطباع على شكل شعور عام بالقلق والخوف والضيق النفسي والحرمان مع رد فعل مؤلم . وقد يكون ظاهراً أو دفيناً عند جميع الذين تألموا في الأشهر الأولى من

حياتهم (وقد يحدث مرض ما نفس الشعور الذي يحدثه نقص العناية أو خطأ التربية) . وعلى عكس الأحكام القياسية العادلة فقد ثبت ، بنتيجة الاختبارات والتجارب ، أن لين الآباء نحو أبنائهم ، وميلهم إلى اعطائهم حريات واسعة – إذا كان ذلك لا يتعلق بالرضيع وتطوره الهضمي – ليس له بحد ذاته نتائج مؤسفة ذات تأثير على التكامل النفسي في حياة الشاب المقبلة ، بل يعود أثر هذه النتائج على الآباء أنفسهم أما الأطفال فحالما تؤمن رغباتهم الصبيانية تهدأ نفوسهم وينتقلون بصورة طبيعية إلى أهداف أكثر فائدة عندما يكبرون ، إذ تعلمهم صعوبة تحقيق المطالب الحاجة إلى بذل الجهود في سبيل نيلها . وتجدر في هذه المناسبة الملاحظة أن لين المربين حيال الأطفال ترافق غالباً سلوكاً عاطفياً معيناً ، وحنواً ضاراً. وهذا هو العنصر الضار في التربية . وعلى الغالب فإن الأسر لتخطئ في تشددها بالقسوة ، سواء أكان بصورة عامة أو إزاء نقاط معينة يهمهم أمرها بصورة خاصة ، ومع الزمن فإن كثيراً من المشاغل تتضخم وتزدحم حتى تسيطر على الوجدان وتصبح نقاطاً متبلورة من مختلف أنواع المضايقة والإزعاج ، إذا أن كثيراً من البالغين في سن الأبوة أو الأمومة يبدو عليهم نوع من هذه الأشكال المشوهة التي يحاولون فرضها على أبنائهم كقواعد مألوفة عادية . فإذا اعتاد أحدهم مثلاً الانزعاج من الضحك فلا يستطيع أن يتحمل هذا الأمر المكروه في أحد من نسله ، و إذا استهوي آخر حب " الحقيقة " سحره كل انحراف في التصورات الصبيانية . كما لو كانت اجراماً أو اعتداء على مثاليته .

وإلى جانب القسوة المعنوية توجد القسوة العاطفية والمادية . أن بعض الآباء يعتقون أن من الواجب عليهم أن لا تبدر منهم كلمة عطف نحو أبنائهم ، فلا يميلون بطبيعتهم إلى مداعبتهم ، ومنهم يمتنعون عن تقبيلهم خشية الجراثيم مثلاً . أما القسوة المادية فهر أكثر شيوعاً ؛ ففي بعض الأسر تستعمل أنواع من أدوات التعذيب أو التأديب كالسياط والعصي وأطواق الجلد ، الخ .. وقد لوحظ أن الأطفال شديدو الخوف من التشويه المتغلغلة جذوره في اللاوعي الجماعي. وكم من أرباب الأسر يرددون بحمق وجهل أنه يجب تخويف الأطفال من شيء ما كما لو كان الخوف عاملاً أساسياً في الإصلاح والتقدم والنجاح ؛ ومع ذلك فربما كان التخجيل أسوأ هذه الأساليب البغيضة ، لأنه يجتث ثقة الطفل بنفسه من أصولها ، ولأنه يحطم عنده رغبة الاستحسان والتحبيذ التي هي لديه أكبر عامل في انسجامه مع المجتمع . يعتبر بعض المربين طموح الولد كمظهر من مظاهر الكبرياء الذي يرون فيه أقبح أنواع العيوب فيعملون جاهدين في سبيل تحطيم هذا الطموح ، موحين إليه بشعور الضعة والحقارة والنقص بداعي حب التواضع ونكران الذات . وذلك بأن يؤكدوا للصبيان أنهم ليسوا بالأقوياء ولا بالأذكياء ، وإلى البنات أنهم لسن بالفاتنات ولا بالجميلات ، ثم يطلبون منهم ، بعد أن يكبلوهم بهذه القيود الخاطئة ، مجابهو بداية الحياة بمصاعبها وأهوالها ، فإذا ما اقترف الولد خطأ ما كالكذب أو السرقة أو اللهو، اصطنعوا أساليب مختلفة وخاصة أمام الذين يطمع بعطفهم واحترامهم .

وغالبا ما تتخذ أكثر النواحي حساسية عند الطفل هدفاً لهذه

العقوبات ، فيحرم بهذا الاعتزاز، ويفقد أسمى ملاذ . وكم سببت هذه المعاملات الشاذة من أمراض عصبية ،آلت في النهاية بأصحابها إلى ولوج سبل الإجرام ، لأن الولد ، إذا ما فقد الأمل بتقدير مزاياه وخلاله ، لم يبق أمامه إلا الاستهانة بالقيم الأخلاقية ، وولوج أبواب المساوئ والعيوب ، ولا يغربن عن البال ما يخلفه مع الزمن ، الاستهزاء اليومي ، والسخرية المتتابعة ، من نتائج سيئة الأثر على الأولاد . كثيراً ما تفرض الأسر على الأولاد ايحاءات خاطئة جائرة . فلتخفيف التنافس بين شقيقتين مثلاً ، تحكم الأسرة أن إحداهما جميلة ولكنها بلهاء ، والأخرى دميمة ولكنها كية ؛ ثم تستمر الأسرة في تغذية هذه الفكرة سعياً وراء إقرار شبه مساواة بينهما ، غير عالمة أن ذلك يحطم الأثنين معاً . وهناك بعض الأمهات ، حرصاً منهم على استبقاء الولد الوحيد في أحضانهن ، يرددن على مسامعه أنه ضعيف وعاجز عن الحياة لوحده كغيره من الصبيان ، ويلقنه من نعومة أظافره أن يسلك سلوك الشيوخ المرضى ولا يخفي ما يعقب ذلك من نتائج مؤسفة . وفي الظرف الذي تتفتح فيه غرائز الطفل الاجتماعية ، واستعداده للانسجام مع الوسط الإنساني ، يشعر بحاجة ملحة إلى العدالة ، وخاصة إلى عدالة تتلاءم مع شعوره وإحساسه . أن كل ما يظهر له غير منسجم مع الواقع سواء في تقدير مزاياه أو نقد أخطائه ، يثبط همته ، بل ربما دفعه إلى الانحراف عن النظام الاجتماعي ، بحيث يصبح تائهاً حائراً ضالاً ش إذا . فلأجل معرفة هذه الحاجة الشرعية للولد (العدالة في الحكم على أعماله) ولتأمينها ، لا بد من خبرة واسعة في معرفة النفس البشرية وأسرارها التي

قلما تتمتع بها الأسر . ويكاد الناس جميعاً يكونون متفقين على الصفات التي يجب أن يخضع لها : من إطاعة ونظام ،ولطف وكياسة واجتهاد وغير لك ، ولكن لم يسبق لأحد تقريباً أن حدد صفات المربي المثالية ، ولا غرو في ذلك " فالحق للأقوى " . ولهذا يجدر أن لا نتجاهل أهداف التربية الحقيقية ، كما يجب أن نعلم قبل كل شيء فيما إذا كان هدف التربية تهيئة الأطفال إلى حياة الرجولة المقبلة ، كي يكونوا أفضل انتاجا، أم إذا كانت تهدف إلى جعلهم هادئين وديعين ليكونوا أقل إزعاجاً للأهل والمربين . ومن الشائع المعلوم أن المقياس المتعارف عليه بين تقاليد الأسر عن الطفل المثالي لا يهدف إلا إلى الطفل باعتباره طفلاً فحسب ؛ إذ قلما تبذل العناية لمتابعة مقدرات الأطفال الهادئين في مستقبل حيتهم لأجل الحكم على النتائج السيئة التي يؤول إليها هذا الهدوء . أما إذا كان هدف التربية تهيئة رجال ذوي حيوية ونشاط، يجب أن لا يغرب عن البال ، أن القسوة والتخويف والتخجيل ليست إلا وسائل واهية ، لا تقتصر على كونها عديمة الجدوى في حقل التربية ، بل هي أيضاً كثيرة المساوئ والأضرار .

وهناك نقطة أخرى جديرة بالبحث ، وهي : هل تهدف التربية إلى تهيئة الأطفال للحياة كما هي ؟ أم لدفعهم نحو مثالية لم يبلغها أحد بعد؟ وبصورة عامة أن الفضيلة التي يبشر بها الآباء ، ويحرصون بشدة على غرسها في نفوس أبنائهم ، هي التي فاتهم أن يتحلوا هو أنفسهم بها . وأحسن الأمثلة في هذا الصدد ما يمكن البحث عنه في ميدان الغريزة الجنسية ؛ أو كما يقول البعض في ميدان الطهارة والنقاوة ، ويمكن

تعميم هذه الملاحظة والقول أن الرجال لا يتكلمون ولا يكتبون إلا وهم يهدفون إلى تقويم حقيقة تسوؤهم أو إصلاحها ، تكفيراً عن أخطائهم ، وتبريراً لما كرهوه من ماضيهم ، وتزكية لنفوسهم . أنهم يسوقون أحاديث ، كأحلامهم ، نحو مثاليتهم ، متهربين من ذكر المساوئ المكروهة التي مروا بها . ومهما كانت هذه الجهود جديرة بالإعجاب فليست لتبعدهم عن كونهم لا يبشرون إلا وهم كاذبون ؛ وخاصة عندما يتوجهون بأحاديثهم نحو الأحداث ، فهم يكذبون على التاريخ باختيارهم الحوادث الملائمة لشعورهم ، ويكذبون على العلم في تهربهم من القضايا التي لا يجدون لها حلاً ، أو من الخفايا المجهولة لديهم ، والزوايا المظلمة ، فلا يحفظون إلا ما يرون فيه الصواب . ويكذبون على الأخلاق بامتناعهم عن التحدث عن سلوك الرجال المألوفة ، بغية عرض مثاليتهم في السلوك كأمر مطلق . إن هذه الاتجاهات تؤذي التربية بالغ الأذى ، إذ يرى الولد نفسه وضيعاً ، ضعيفاً حيال ما يرجى منه ، معتقداً أن غيره أقوم منه خلقاً ، فينمو وفيه شعور النقص ، وإدانة النفس ، مع ما يرافقه من وهن في الأعصاب ومن أمراض عصبية مختلفة : كالجبن ، والشعور بالنقص ، وضيق الصدر ، وانقباض النفس ، وغير ذلك . أو يعتقد أنه غير قادر على شيء فيقرر العيش وفق الفكرة الليلة التي كونها من نفسه . وهكذا فإنه يسير القهقري بصورة مستمرة أكيدة . يجب أن تكون هناك تربية أخلاقية معقولة ، تأخذ بعين الاعتبار ، ضعف الأحداث ، وطاقتهم ؛ فلا يمكن أن يطلب من غلام ، لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، أم يحيا حياة حكيم من حكماء اليونان ، أو فيلسوف من الفلاسفة ، إلا أن يكون

هذا الطلب ظاهر الجور والبهتان ، فإذا لم يمر الطفل بحالة طبيعية حرة في أدوار المراهقة والبلوغ ، لا يمكنه أن يكون في المستقبل رجلا معتدلاً ، صافي السريرة ، هادئ النفس . كيف نطلب من الاحداث ، والحيوية ملء نفوسهم ، والنشاط والحركة يغليان في عروقهم ، أن يعيشوا عيش الشيوخ ؟ أن المثالية التي نضعها أمام الأحداث ، كنموذج سهل التحقيق ، لا يجوز أن تكون مثالية الشيوخ العاجزين ، بل يجب توجيههم ، والحكم عليهم بما يتلاءم ومقتضيات سنهم .

إن الوسط العائلي ، لا يكتفي بفرض سيطرته المطلقة فقط ، ولكنه يشكل أيضاً وعاء مغلقاً لخصائص ضيقة حيال التماس الاجتماعي . وفي الحالة التي يأخذ فيها هذا الوسط بالتميز عن متوسط السلوك المألوف الذي يمثل السلوك الطبيعي للبيئة والعصر ، يجد الولد نفسه موزعاً بين اتجاهين متباينين ، قبل أن تكون لديه وسائل الاختيار وإمكانيات التمييز . إن الولد الذي ألف اتباع أو رفض الأوضاع بدوافع عاطفية ، كالمحاكاة والاحترام ، يلاقي مشاكل قد تكون مؤلمة حقاً ، ومرد ذلك إلى عدم تمتعه بالمكتسبات العقلية ، أو اختيار هذا النوع من المتناقضات ، ولعجزه عن إيجاد الوسائل المؤدية إلى حسن الاختيار . لم تكتف أكثر الأسر بتجاهلها ضيق الأولاد الوجداني أمام المتناقضات ، بل تذهب إلى حد اتخاذهم ميدان صراع ؛ فيقرر الآباء مثلاً أن أولادهم يجب أن يربوا تربية لا دينية ، في مدرسة تعني عناية شديدة بأمور الدين ، أو بصورة أعم يثقلون كواهل أبنائهم بعبء آرائهم الشخصية في وسط ذي اتجاه مغاير كما لو كانوا يريدون أن يتخذوا منهم عمالاً للدعاية أو التحدي ، و إذا

ما حاد الطفل ، بعد بلوغه ، عما رسمه الآباء ، كما يحدث غالباً ، فما ذاك إلا بدافع الكره والحقد على التجارب القاسية التي حملوه أوزارها . ويصعب جداً على المرء أن يكون الأسود الوحيد في مدينة البيض ، أو الأبيض الوحيد في مدينة السود . وكثيراً ما يتألم الأطفال من القضايا الطبقية والاجتماعية ، إذ نرى بعض العائلات الحديثة النعمة ، التي يشغفها حب الألقاب ومظاهر العظمة ، تضع ابناءها في كليات ارستقراطية ، حيث يدأب رفاقهم على ترك هوة عميقة تفصل بينهم وبين هؤلاء الجدد الذين يصيبهم من جراء ذلك ، شعور بالذل والضعة ؛ وينتج عكس ما ذهبت إليه الأسر ، إذ يصبح الأولاد كما قلنا سابقاً ، حقلاً للصراع بين رغبتها ورد فعل المحيط . وتؤدي حالات الفقر والغنى إلى أوضاع مماثلة ؛ فكم من الأولاد من حز الألم في نفوسهم لانتسابهم إلى أسر أقل غنى من رفاقهم ؛ والعكس ممكن أيضا في بعض الحالات . فيتحتم على الأسر إذن قبل أن تفكر بأوضاعها الخاصة ، ومراكزها الاجتماعية أن تنجب وضع أبنائها في أماكن ذات أجواء مغايرة لنمط حياتهم العائلية . ويجدر بالأسر ، بالإضافة إلى ما تقدم ، تجنب اتاحة المجال للأولاد لمشاهدة الخلافات التي تقع عادة بين الوالدين ، وخاصة إذا كانت عنيفة ، أو ترتدي طابعاً حزبياً ، أو طبقياً ، أو ما شابه ذلك. ومن الخطأ اجتذاب الأولاد إلى هذه المشاحنات التي لا يستطيعون فهمها والإحاطة بها . ومع ذلك فكم من الأمهات من يسعين إلى تلقين الأبناء أفكاراً مغايرة لآراء الآباء ، وكم من الآباء من يسخرون أمام الأبناء من آراء الأمهات عاملين على استمالتهم نحوهم ، معتبرين

ذلك فوزاً في المباراة الزوجية . وبصورة عامة ؛ أن الخلافات العائلية ، تثير عواطف الأبناء العاجزين عن تذوق فوائدها العقلية . ويزداد اضطراب هؤلاء الأبناء كلما زادت حدة هذه المناقشات . وهناك عادات مكروهة تدرج عليها الأسر دون أن تنتبه إلى مخاطرها على الأبناء ؛ وقد تكون هذه العادات التي تتحكم في نفوسهم كأمراض مزمنة ، والتي ينقلوها إلى الأبناء كثيرة لدرجة تشذ معها عن الحصر ؛ كمرض الخوف من الجراثيم ومن اللصوص ، ومن مجاري الهواء ، ومن الموت ، وغيرهما من العادات التي تنطبع بطريق العدوى في نفوس الأبناء الغضة . و إذا أردنا تقصي أسباب الشراسة عند الأولاد ، وجب أن ندخل في عدادها الحنو المفرط الذي يظهره بعض الآباء حيالهم ، وحبهم الأناني الشديد ؛ كما ندخل أيضاً حقدهم واضطهادهم . ولا يغرب عن البال أن سكنى الوالدين مع أبنائهما في غرفة واحدة لا يخلو من المحاذير والأضرار . فبعض الأبناء ينامون مع الوالدين في غرفة واحدة ، وبل وأحيانا في سرير واحد ، حتى بلوغهم سناً متقدمة بحيث يصبحون لا يخفى عليهم شيء عن الحياة الزوجية .

وإن المربين ليتجاهلون عادة شدة تطلع الأولاد الصغار لمعرفة أسرار الأمور الجنسية ، وما يحدثه ذلك من اضطراب عميق في نفوسهم فإذاما أثيرت غريزة ما ، قبل أوانها ، أحدثت آلاما نفسية عميقة . كما أن نوم الأولاد في غرفة الوالدين لا يخلو من محاذير ، فإن نوم الاخرة والأخوات قرابة سن المراهقة في سرير واحد أو غرفة واحدة يؤدي إلى نفس المحاذير ، مما يسبب اضطراباً في غريزة الأولاد الجنسية الناشئة .

وقد لوحظ أن الولد الوحيد أو إلى يحتل مكانة خاصة بين إخوته يتميز بطابع خاص . فالبكر يكون عادة أكثر انشغالاً وأمين رجولة ، وأقرب إلى التفاهم ، والولد الثاني يبدو كثير الطموح ، ميالاً للمنافسة والمباراة والولد الأخير يكون متفائلاً فرحاً قليل المبالاة والجد . كما لوحظ أن الولد الذي ليس له سوى أخ واحد بدون أخت ، والبنت التي ليست لها إلا أخت واحدة لدون أخ تبدو عليهما دلائل التنافس بمظاهرها العادية : كالشعور بالنقص عند أحدهما ، والشعور بإدانة النفس عند الآخر . ويلاحظ أن هذا الشعور يشتد كلما تقاربت السن بين الأخوة والأخوات ، وكلما كان التفاهم بينهم على أتمه ، أي انهم قد دفنوا جميعاً تنافسهم في اللاشعور . يستطيع الطفل قبل بلوغه الخامسة أن يكون أكثر تحملاً لقدوم أخ أو أخت جديدين ؛ وبعد سن الخامسة يشعر أنه بلغ درجة من السمو تجعله ينسجم مع المولود الجديد موحداً شعوره مع شعور والديه . أما في سن الخامسة تماماً فتظهر أشد المشاكل العاطفية عن الطفل ، إذا أنه في هذه السن كبير جداً فلا يجهل التضحيات التي ستترتب عليه ؛ وصغير جداً فلا يتقبلها برضى وارتياح . إن الفوارق الجنسية تلعب دوراً هاماً بين أولاد الأسرة الواحدة بشكل تخف معه روح التنافس أو تختفي كلياً مخلفة مكانها تعاطفاً وتحاباً . وقد لاحظت أن اختلاف خمس سنوات في السن مثلاً يسبب أحياناُ ارتباكات عاطفية بصورة تعلق غيور عنيف مع توابعه من الكبت الجنسي والآلام العصبية المتتابعة و إذا كان الغلام يزيد عن الأخت خمس سنوات فقد تبلغ هذه الارتباكات درجتها القصوى . وإذا كان موقف الوالدين غير ملائم فقد يؤدي غالباً إلى إفساد

العلاقات بين الاخوة والأخوات . فيكثر من الأمهات من يملن إلى تحويل المظالم التي تصيبهن من الأزواج إلى الأبناء ، وبهذا فإنهم يحاربن ، لا شعورياً ، الرجولة الناشئة عند أبنائهن بإذلالهم ، وتثبيط هممهم ، وقد ينجحن غالباً في إضعاف الحيوية النفسية فيهم بينما هن يشجعن بناتهن بأشكال مختلفة من ضروب التشجيع ، وما ذلك إلا ليربطنهن بهن نهائياً محولات بصورة لا شعورية نظرهن عن الزواج ؛ أما الأبناء المعاملون بالصورة المذكورة فإنهم كثيراً ما ينحرفون عن جادة الصواب . وبعكس ذلك فهناك أمهات أخريات يعاملن أبناءهن برعاية ، ولكنهن يقاومن أنوثة بناتهن ، إذ يشعرن كأنهن منافسات لهن ، فيجبرون الأخوات على خدمة الاخوة والخضوع لهم . أما إذا بدا الأب من جهته أكثر عطفاً نحو البنات فيعود التوازن ويخف الأذى . أما في الحالات المعاكسة فالبنات يذهبن إلى الرهبة من الرجال كثيراً وتنحرف ميولهن ، والصبيان يتفادون احتقار النساء بصورة عامة ، الشيء الذي لا يتلاءم ورجولتهم الحقيقية . أما الأجداد فغالباً ما يكون لهم تأثير نفسي كبير على الأولاد ، وتزداد قوته كلما أزداد اهتمامهم بهم ، إذ أنهم قد بلغوا من العمر ما يجعل اتحاد شخصية طفولتهم مع شخصية الطفل اسهل منالاً منها في الزمن الذي كانوا فيه أقل شيخوخة .

وفي الوقت نفسه ، فإن وجود هؤلاء الأطفال يعيد إليهم جو حياتهم الزوجية القديمة مع جميع ما يحيط بها من ذكريات الشباب اللذيذة العذبة . فهؤلاء الأجداد الذين رأوا بحسرة بالغة أبناءهم أو بناتهم يغادرون منزلهم بسبب الزواج ، وحملوا في نفوسهم للسبب نفسه ضغينة

صماء نحو (الكائن) أو الأصهار ، يجهدون ليغرسوا في نفوس احفادهم جميع الصفات التي يعتقدون أنها من تراثهم ، عاملين في الوقت نفسه على استئصال كل ما يرونه مأخوذاً عن تلك الأسرة التي يعتبرونها بمثابة الخصم أو العدو . وأن الحلويات التي يقدمونها بسخاء للأطفال أن هي إلا أحابيل منصوبة لحرب طويلة الأمد . وفي الحقيقة فإنهم يبذلون وسعهم بصورة قريبة من اللاشعور لتحريض الطفل على مناهضة أحد والديه . وهكذا فإن بعض الصغار يصبحون ميدان صراع بين الجدود ، سواء من جهة الآباء أو الأمهات . أما إذا وجد هؤلاء ، في والديهم العناصر العاطفية الكافية ، فلا يلبثون أن يجابهوا هذه الأوضاع بحيلهم المريبة الخاصة ، حاملين جدودهم على السير وفق مصلحتهم الكبرى ، ويرون هكذا مدفوعين ، بصورة مباشرة ، نحو نضجهم العاطفي، بل نحو سياسة الوجود الواقعية .

ومن بين أعضاء الأسرة الأعمام والعمات الذين يتمتعون بصورة عامة بالنفوذ المجرد الخير لقلة تأثرهم بالنزعات العاطفية ، والعقد اللاشعورية ، فيجد الأطفال لديهم غالباً تعويضاً وتصحيحاً للأعوجاجات التي يرونها في أمزجة آبائهم . أما أبناء وبنات الاعمام فإنهم ، بنظر الأطفال الذين نشأوا معهم ، كأخوة وأخوات من درجة ثانية ؛ أي أن المشاكل العاطفية تكون حيالهم أقل حدة ، وأسهل حلاً . ولذلك فإن كثيراً من الطلاب الكبار ، بعد أن سبق لهم أن أعجبوا بأمهم أو أخواتهم ، ورأوهن كأجمل النساء في العالم يغرمون بحب بنات أعمامهم . ولا شك في أن جميع أعضاء الأسرة يلعبون دوراً هاماً في تحريك عواطف الأبناء وهو دور قد

يكون من السهل جدا ان يطلب من الطفل واجبات كثيرة ، وجهودا وافرة، أو أن يطلق له العنان ليتمرن علي اعباء الحياة ، ثم ان يحكي عليه كالمسؤول الوحيد لما يخفق في اعماله . وكفي المربين ما اقترفوه حتي الآن وقد حان الوقت لاختيار القضية من الوجهين ، وايجاد العلاج للأوضاع الشاذة التي تسبب عيوب الأطفال بصورة ردود فعل لها .

الفصل الرابع

المشاكل المدرسية

تتناول المشاكل المدرسية ثلاثة عناصر: الزملاء و العمل و المعلمين. يشكل الزملاء الوسط الاجتماعي الذي يتمرن فيه الطفل علي العلاقات الاجتماعية، ويختلف هذا الوسط عن الوسط العائل. و يوجد دوما في المدرسة معتدي عليهم، جريئون وجبناء، مجتهدون وكسالي، وبنتيجة الاحتكاك مع هذا الوسط يمضي الولد في مقارنة نفسه بغيره من الزملاء وفي تقدير قيمة شخصيته . ولهذه البيئة ميزة أخري لا تقدر بثمن وهي كونها مؤلفة من أولاد في سن متقاربة ومتجانسة. فاختلاف السن يميز الأطفال بشكل ظاهر. ففرق سنة أو سنتين يحدث تفاوتا بينا بينهم . وفي الأسرة يري الأولاد انفسهم حيال الكبار في حالة ضعة تامة وتبعية بارزة. ولا شك أنه يوجد في المدرسة أولاد كبار وصغار كما في الأسرة . ولكن الصف هو وسط اجتماعهم الدائم . وهنا تتساوي الأعمار عند معظمهم علي الأقل. وينتج عن هذا تلاشي هذه الفروق بسرعة. وإن مقدرة الطفل في هذه المقارنة بالغة الخطورة ، إذ أن الطفل الذي يعدم هذه الوسيلة يكون عاجزا أيضا في مستقبل حياته عن توثيق العلاقات بينه وبين الآخرين . وأخيرا فان للوسط المدرسي ميزة العدد والتنوع . فللمرة الأولي يستطيع الولد أن يختار أصدقاءه وأعداءه بما يتلاءم وطبيعته وبدون أن يكون خاضعا في ذلك إلى إيحاء الأسرة أو ضغطها ؛ وتتهيأ

هنا شروط ملائمة لنمو الحياة العاطفية والاحساس . ومن جهة أخري ، لما كان الولد لم يخضع لأي تأثير في تفضيله بعض الرفاق علي غيرهم فانه لم يجد لا ترددا ولا حرجا في التمييز بين الفئات الصغيرة التي تتكون في صفه والتي تعطي مقدما صورة عن الجماعات الصغيرة لدي الكبار إنه يتعلم تحليل ميوله الاجتماعية في أدق خصائصها الشخصية . ومن جهة أخري فان هذا الوسط المدرسي المزدحم هو مركز التيارات العاطفية التي يميل إليها جميع التلاميذ إلى الانصهار في بوتقتها ويتعلم كل منهم بهذه الطريقة كيف يذوب في الجماعة ناسيا كل

خصائصه . ويمكن القول بأن الاستعداد الاجتماعي الأكثر كمالا يحتوي وبالإضافة إلى مبدأ (الأنا) الواضح سهولة الاندماج في الأعمال الجماعية المشتركة. ويستطيع الولد في المدرسة أن يستخدم مرونته النفسية في الناحيتين المتضادتين . و إذا كان صحيحا أن كل غريزة تتضمن لذتها النوعية ، فان الغريزة الاجتماعية قادرة علي إحداث نوع من اللذة وهي : شعور الطفل بمتعة اندماجه في مجموعة متماسكة قوية ، وعندئذ لا يبقي مجال للاختيار (إن كل اختيار يفترض شبهة مقدمة مع نوع من الانقباض) ، وكذلك يزول كل تردد وحرج ، كما يحدث من جهة أخري شعور عميق بالاطمئنان والأمن ، لأن قوة الجماعة تسري إلى كل من أفرادها . إن التيارات العاطفية التي تسبب وحدة الرأي بين تلاميذ الصف الواحد ، إن هي ، تارة إلا وثبات الاعجاب والاحترام لهذا أو ذاك من الناس ، وطورا موجات من الكره الجماعي لشخص آخر . وقد يكون هدف هذه العاطفة أستاذ أو ناظر ، عندئذ يصحب الكره نوع

من الخوف يجعله مكبوتا . وكثيرا ما يحدث ان يتجه الكره الجماعي نحو رفيق عاثر الخط قد يكون أجبن التلاميذ ، وأكثرهم فقرا ، واضعفهم بنية ، ومزدري من اسرته ، أو مكروها من اساتذته . فهذا الكره الجماعي يكشف عن الدوافع الغريزية لهذه الشراسة الصبيانية العنيفة . والجماعة بصورة عامة تضطهد العناصر التي لم تندمج بعد في كتلتها أي الذين لم يستطيعوا أن يتخذوا معها مبادلات عاطفية : كالرفاق الجدد ، والغرباء ، والمجهولين ، أو الذين يتميزون بخصائص لا يمكن تحويرها . والأولاد رغبة منهم في ان يكونوا كتلة قوية متجانسة يجهدون لمحو أو نسيان كل ما يميز بينهم . فإذا بدا علي أحد الرفاق فارق ظاهر أو كان لونه مغايرا ، أو كان يسكن حيا آخر ، أو يلبس ثيابا مخالفة للنوع المفروض ، فان الجماعة تسعي بصورة لاشعورية لرفض ، أو ازالة هذا العنصر غير القابل للانسجام . وقد لوحظ عند الكبار أن اقرب الجيران هم اكثر الناس تباغضا ؛ وما ذلك الا بسبب فوارق صغيرة تمنعهم من الشعور بأنهم جماعة منسجمة حقا ، وتحرمهم لذة الاتحاد والامتزاج . فلما لم يستطيعوا التأثير علي هذه الفوارق اندفعوا بسخطهم نحو الأشخاص الذين يحملونها ؛ وكذلك ، فان الخوف من الفقر عند الأشخاص البسطاء يوحي اليهم بموقف شديد القسوة حيال الفقراء ، كما يدفع الخوف من الألم احيانا إلى اضطهاد المتألمين البؤساء.

وهذه العوامل نفسها تلعب دورها في المدرسة أيضا فالطفل الذي يكون ضحيتها هو الذي تظهر عليه اضطرابات نفسية شديدة ، وهو الذي قبل ان يكون هدفا لأي عداد كان كثير الشك في نفسه أو كثير

الشعور بنقصه وضعته . وتكون الاضطهادات المدرسية عند الأولاد بمثابة اختبار خطير للغاية . وكلما كانت ضحاياها صغارا ، وبدت امكانياتهم الغريزية للانسجام الاجتماعي مزعزعة مهددة ، وكثيرا ما تقع بعض الاعتداءات بين الطلاب علي مسمع ومرأي من الأساتذة والمراقبين ، فلا يهتمون بها مهما توسعت شقة الخلاف ، ومهما ارتدت طابعا عنيفا ، مع أنه كان من أولي واجباتهم قمعها . واشد من كل هذا ان نري بعضهم يصب جام غضبه ظلما علي الضحية المعتدي عليها ، فعلي المديرين والمفتشين ان يحاربوا هذا الاهمال والجور عند النظارة والاساتذة . ان السن المدرسية هي المرحلة التي تنمو وتتفتح فيها الغرائز الاجتماعية حتي ان بعض مظاهر هذه الغرائز تبلغ في هذه المرحلة مدي لا تبلغ مثله في طور الرجولة، ومن جهة اخري فإن في الغرائز الاجتماعية مجموعة من المظاهر المختلفة التي تتكامل بالتتابع. والمظاهر الأولية التي قد يطرأ عليها عادة هذه الحال. وهكذا فان الحاجة إلى التقليد تأخذ مداها الواسع . ويكفي ان يلهو أحد التلاميذ بلعبة من أتفه اللعب حتي يسعي الآخرون جاهدين للحصول علي مثلها . وتنشأ احيانا في الصفوف طقوس وعادات مختلفة ، منها . اللغات الصبيانية الخاصة ، أو الكتابات السرية ، التي يبتكرها التلاميذ . والتي ليست سوي استجابات لحاجة الطفل للتقليد ، والابتكار . وتتضمن الغرائز الاجتماعية هذه الحاجة المزدوجة للتقليد ، وإلي الانصهار في بوتقة الجماعة المنسجمة ، والتمييز الجماعي (الكل) ، والفردي (التنافس) . ويسعي الولد إلى الانفراد ببعض البطولات (الرياضية أو العقلية أو غيرها) في الوقت

الذي يرجو فيه الحصول علي استحسان رفقائه ، أي انه يرغب بتمتين الأواصر التي تربطه ببيئته . و إذا لم ينجح بأمور ذات بال يجهد لكسب التقدير ولو عن شعوذاته ومشاغباته ، وعلي المربي الصالح أن يساعد كل تلميذ علي انتهاج السبل القويمة للاندماج بالجماعة ؛ وهذا أجدي نفعا في حياة التلميذ المقبلة من كل معلوماته المدرسية الأخرى . ان أسمي مظاهر الغرائز الاجتماعية تنمو في طور البلوغ .

وهي تسيطر علي السلوك وتقود خطاه لتحفظه متناسبا مع مثالية خلقية ما . ويحاول المراهق الحصول علي السيطرة علي نفسه ، وتنظيم اتجاهات غرائزه العفوية بطريقة ضبط إلى . ولا شك في أن كل إفراط في هذه الطريقة يؤدي إلى أمراض عصبية ، والي مبدأ تدمير النفس . وان علي التربية منع كل زجر ، أو قمع ، غير ملائمين .

ان الأولاد الذين ليس لهم إخوة أو أخوات ، بعدد كبير ، فانهم يجدون في الوسط المدرسي فرصة للألعاب الجماعية التي لا يمكنهم التمتع بها في البيت . وهناك نموذجان من اللعب : أولا : الألعاب التي تمرن ملكة الخيال ، عند الأطفال ، وذلك بأن يتحد الطفل روحا مع شيء ما ، ثم يأخذ بتصور حالات مختلفة ؛ وهذا النوع من الألعاب يمكن المثابرة عليه ، في الوحدة أيضا ، إذا تهيأت بعض التفاصيل الملهمة : كاللعبة والقطار ، والطيارة ، وغير ذلك . أما الأولاد الكبار فانهم يقومون بالألعاب ذات الصفة الفعالة التي تجد مرتعها الرحب في الطريقة المشتركة الواسعة . ولكي يكون للعب نتائجه السعيدة ، وقيمته

الفعالة ، يجب ان يؤمن سرور الطفل وانشراحه ، وان يعوض عن رغباته التي لم تتحقق ، وعن فشله وإخفاقه ، ولو في حدود خياله ، وتصوره ؛ والا كانت فشلا جديدا يضاف إلى اخفاقات سابقة . لقد توصل المربون اخيرا إلى الاعتراف بضرورة اللعب للأولاد ، وخاصة للذين يشكون ضعفا جسميا ، ونفسيا ، بشرط ان يؤمن اللعب لهم التعويض عما ينقصهم . ولذا فلا يكفي ان تعطي للأولاد فسحة للاستراحة فقط ؛ وليس اللعب وسيلة لتحرير المعلمين من اعمالهم ، كما انه ليس وسيلة للكبار ، للحصول علي الراحة والهدوء ، بتركهم الأولاد وشأنهم ، بل إن اللعب عبارة عن عمل آخر يستدعي الانتباه والتشجيع ، والتوجيه نحو أهدافه التربوية النافعة ، وما هو للولد الا وسيلة فعالة للنمو الجسمي والتكامل النفسي . وفي المدرسة تظهر القضايا المتعلقة بيقظة الغريزة الجنسية بشكل يختلف تماما عما تظهر فيه في البيت ، إذا كثيرا ما يسعي الأولاد إلى الاستعلام عن القضايا التي لا يكشف لهم الكبار عنها ، فيؤدي بهم ذلك إلى أوهام ، وتقديرات مختلفة ، قد تجعلهم ينحرفون بتفكيرهم ، فيزلقون إلى مهاوي مخيفة ، تؤدي إلى حالات نفسية ، ربما آلت بهم

فيما بعد إلى امراض عصبية خطيرة فمن المستحسن ان تعطي لهم بعض المعلومات الأولية الملائمة ، خلال دروس الأشياء والعلوم الطبيعية . ومن جهة أخري فان العادة السرية ، المنتشرة بين معظم الشباب ، والشابات يجب ان تعتبر من قبل علماء التربية ، كما هي واقعيا ، مظهرا عاديا من مظاهر ابان البلوغ ، ويجب الاحتراز في هذا الصدد من توجيه

تهديد ، أو زجر فيهما ، معني الاذلال ، أو السخرية والهزء . ويجب مقاومة اسطورة الأضرار الصحية الجسيمة ، التي تنتج عن هذه العادة ، اذ لا يكون ضررها الا في المخاوف ، والأوهام المصطنعة التي يلصقونها بها ، وفي النتائج النفسية للإيحاءات التي يسببونها .

وأخيرا فالمشكلة الجنسية التي تستوجب الانتباه في المدرسة ، هي ميل الجنس للجنس، وتثبت التجارب أن التربية المختلطة تشكل خير وقاية من هذه المحاذير . ومهما يكن فالعمل المدرسي هاما بالنسبة للامتحانات والمسابقات فانه لا يشكل في كيان شخصية الطفل الا نوعا من الاختبار البسيط بين اختبارات أخري . غير أنه اختبار يجعل الكبار يحكمون من خلاله علي مقدرة الطفل ، ويولونه أهمية كبري . فبعض التلاميذ ، بسبب جبنهم ، أو شعورهم بالنقص ، يعجزون عن تحقيق استعداد ملائم للحياة الاجتماعية مع اترابهم أو الذين يقنطون من الحصول علي خطوة أو تقدير أو تقدير أو الذين يخشون اعتداء عرضيا من رفاقهم يرون انفسهم مضطرين إلى بذل جهود كبيرة في أعمالهم المدرسية ليحصلوا اعجاب الرفاق علي تقدير وحماية المعلمين وشكر الأهل. ومن المتعارف ان الامكانيات العقلية عند الولد ، تكون متناسبة مع حالته الجسمية ، أي ان الذكاء هو قوة سامية ، بل نوع من الانتاج الاسمي عند الأحياء ، والذي لا تتحقق فعاليته الكبرى الا إذا تأمن له توازن صحي كاف مهما كانت التعويضات أو الاستثناءات الظاهرة التي يمكن ان تعترض طريقه . ومما لا ريب فيه ان اختلال الغدد ، والتراث المرضي ، يمكن ان يؤثر تأثيرا بالغا في قوة الذهن ، ومع ذلك فيجب

الاحتراز من هذه البديهيات الظاهرة لأنه يلحظ كثيرا بعكس ذلك النتائج المدهشة لعوامل الشعور في الانتاج المدرسي .

وهناك نقطة أخري جديرة بالاعتبار تدعم النقطة السابقة في صدد تقدير العامل العاطفي في الانتاج الدراسي فالمواهب وحدها إذالم تنظم وتوجه توجيها صحيحا لا توصل الطفل إلى رجولة طيبة وكل شيء يجري في الحقيقة كما لو كان النجاح الأكيد يتبع نسبة بالجهود. فالتسهيل والتبسيط المفرطان خطيران جدا إذا كانا يغنيان عن كل جهد لأن المصاعب الجوهرية إذا ما أثارت بعض الجهود تصبح نقطة الانطلاق نحو النجاح . ينتج عن ذلك نتيجتان : الأولي هي أن لا نعتبر التجارب التي تختبر بها الكفاية والأهلية كدليل مطلق للمستقبل ، كما لا يجب توجيه الطفل في دراساته ، استنادا إلى هذه القاعدة الوحيدة ، دون الاهتمام بالانفعالات التعويضية التي يمكن ان تحدث والتي لها قوة فعالة أكثر من سائر المواهب واشدها تمييزا . والثانية ان نذكر انه إذا استطاع الضغط العاطفي التفوق علي كثير من العقبات فعلي العكس فان التثبيط أو الايحاءات السلبية

يمكنها ان تضعف من قوة الفعاليات . فالترديد امام الطفل بأنه لن يستطيع فهم هذه أو تلك من المواد يغلق عليه باب التفكير ويحبسه في اطار صعوباته القائمة ويحكم عليه بالفشل والخسران اللذين ما كان يقع فيهما لولا تأثير تلك الايحاءات . ويبدو تأثير الأيحاء شديدا بنسبة درجة حب الطفل للشخص الموحى والذي لا يملك الطفل حياله أية قوة

دفاعية ولكنه لو استطاع مقاومة هذا الايحاء بنوع من الكره لآل به الأمر إلى تعويض قوي فعال . لقد بولغ كثيرا بأهمية الاستعدادات العقلية ، وربما كان لأجل الوصول إلى ذروة علم من العلوم أو فن من الفنون ، لابد من التحلي ببعض المواهب الفطرية ولكن ما دام الأمر يقتصر علي دراسة برنامج مدرسي أو متابعة دراسة معينة فان باستطاعة اي شخص كان ان يتوصل عمليا إلى شيء ما اعتمادا علي امكانياته العقلية . هذا إذا استثنينا حالات التأخر المرضية . والذكاء هو الشيء العادي العام بين الناس ، أما الشيء النادر فهو الوثبة العاطفية التي تثير جهودا دائمة وعلي الأخص فهو حب الحقيقة والذي بواسطته يستعمل الذكاء للبحث عن الخير للخير لا لتحقيق غاية نفعية . هذه هي المثالية التي كان يجب علي علم التربية الايحاء بها وايضاحها بالأمثلة. والفكرة القائلة بان الثقافة العقلية شيء تافه فائض هي بعيدة عنا ، وفضلا عن اعدادها لتدريب واسع بأنها تهيئ للطفل انواعا مختلفة من عناصر المقارنة ، مثيرة ما عنده من قوة المحاكمة ، كما تعلمه طريقة خاصة بالتفكير ، وفنا خاصا لفهم المسائل وحلها في السن التي يكتسب فيها تدريبا كهذا بصورة طبيعية . وهكذا فان الذهن الذي هيئ بهذه الطريقة يمتاز بسهولة عمن لم تتهيأ له تربية مماثلة . ويجب الاعتراف بان قسما كبيرا من مواد التدريس هو اصلح بكثير لمدارك رجال بسن الأربعين مما هو عليه لأجل التلاميذ الصغار . ومن جهة اخري فليس من التربية في شيء اثقال البرامج بصورة تضطر التلميذ في سن الرابعة عشرة مثلا إلى السهر الطويل في سبيل تأمين واجباته المدرسية ، مع حرمانه من كل وسائل

لهوه وتسليته . والبالغ لا يستطيع ان يحتفظ من معلوماته المكتسبة قبل الخامسة عشرة الا بالتي يحييه منها بالاستعادة والتكرار فيما بعد . ولكن الشيء الذي يكتسبه من هذه المعلومات وهذه الوظائف التي قد يقوم بها بدون رغبة ، هو التعود علي العمل بشجاعة واقدام . وهذه التمارين من شأنها ان تهيئ له فرصة التفوق علي أقرانه ، مع احتفاظه بسلوك منسجم مع سلوك الراشدين دون ما وساوس أو اخطار . اما الأسئلة والامتحانات فتشكل اختبارا للغرائر الاجتماعية ، ومن يستخدمها بحكمة وتعقل يضمن فوائدها النفسية المؤدية إلى نتائج حميدة . وفي الوقت نفسه قد تثير الاختبارات حالات عصبية تؤدي إلى شلل ذهني : وكم من التلاميذ يفقدون كل قواهم الفكرية عند مثولهم أمام الفاحصين . فبدلا من تعذيب هؤلاء المساكين أو احتقارهم كما يفعل الكثيرون من الأساتذة يجب لأجل تخليصهم من الوقوع في أمراض نفسية ملازمة ، مساعدتهم بكثير من اللطف والتساهل ؛ اذ بقدر ما يعطي النجاح في الامتحان من القوة والنشاط والنشوة يجلب الرسوب والخجل ضعفا أو عجزا عن بلوغ أي نجاح فيما بعد إذا لم ينتبه المربون إلى كيفية تلافي حالات الرسوب عند التلاميذ . والطفل يدرك مدي ارتباطه بالكبار فإذالم يلاق منهم جفاء وقسوة انتظر منهم فهم حقيقته وتوجيهه توجيها حكيما وشعر بالاطمئنان اليهم والثقة بهم وبالاندفاع إلى طاعتهم ، وحتي إلى الشعور بالعطف نحوهم . وجدير بالملاحظة ان الكبار قلما يشاركون الطفل نظرته للأمور ، فيعاملونه معاملة حيوان صغير ، باحثين عن راحتهم الشخصية ولو كان فيها اساءة إلى هذا المخلوق البريء ؛ وهم لا

يتورعون عن الافراط في استعمال سلطتهم حياله ، فتبدو له غامضة التفسير ، وسرعان ما يصبح قليل الثقة بهم وكثير الحذر منهم . اما المعلمون الذين سيكون علي تماس طويل معهم فيمثلون لديه امتدادا لعالم الكبار الذي صادفه في أسرته ؛ ومن البد هي ان يستقبلهم الطفل بنفس الشعور العاطفي الذي كونه عن ذويه . و إذا ما اظهر له المعلمون شكلا آخر من العلاقات ، فان حالاته ومشاعره العاطفية تتبدل بسرعة ، لأنه يستطيع ، بالمقارنة ان يصحح ويعوض بعض الانطباعات ، ويحسن محاكمتها مصححا بعض الانفعالات ايضا . ولهذا كان واجب المعلمين هاما جدا اذ انهم ، بسائق تأثيرهم ، ان حسنا وان رديئا ، سيصلحون أو يفسدون أدق الانحرافات النفسية عند التلميذ . فإذاأضافوا ظلمهم الجديد إلى مظالم الأسرة مثلا ، دفعوا بخير التلميذ إلى مهاوي النقائص وزجوه في حمأة الاجرام ، بقلبهم غرائزه الاجتماعية ، وحمله علي رفض قبول العقد الاجتماعي . ويلاحظ أن بعض المربين قد اختاروا مهنتهم دون شعور واضح بالدافع لهذا الاختيار : فلما كانت قلوبهم ما زالت متعلقة بطفولتهم وجدوا في التعليم وسيلة للبقاء في المدارس وإطالة أمد حياة طفولتهم التي لم يملوها غير أنهم قد أصبحوا الآن مركز الاهتمام بين التلاميذ ، وفي الوقت نفسه ، السلطة العليا في صفوفهم ، كما صاروا مساوين لأساتذتهم القدماء ، ولهذا فهم يسعون للاستفادة من الامتيازات التي كانوا يغبطونهم عليها فيما مضي. وكثيرا ما يستغلون هذه الامتيازات ليظهروا بمظهر الشدة والقسوة تحقيقا لاصلاح طفولتهم السابقة فيصبون علي طلابهم الحاضرين جام حسدهم القديم لرفاق

طفولتهم وأما هذه المحن لا بد للولد من أحد انفعالين : فهو إما ان يرتضي بنقصه وضعته متقبلا الايحاء ، ومقررا عدم صلاحه لأي شيء مقرا بالفشل الدائم ، وهذه تهيئة سيئة رهيبة للكفاح في سبيل الحياة وإما أن ينفرد ويتمرد ، حاملا حيال أستاذه الجاني ضغينة قد يعممها بسهولة أو ينقلها نحو أشخاص آخرين . وبقدر ما يكون الولد كبيرا يستطيع الحكم علي الحالات التي تعترض حياته ويكون لديه السلاح الفعال لرد الفعل . أما إذا جاء كره الأستاذ جمعيا استطاع التلاميذ البقاء حياله في حالة احترام ، بدافع الخوف المشوب بالتوفير ، وذلك دليل علي انفعالات الأطفال حيال الكبار القادمين ؛ غير أنهم حالما يكتشفون نقطة ضعف عند أستاذهم المكروه ، يأخذون باللغط والضجيج ؛ وما ضجيج التلاميذ في هذه الحالة إلا رد فعل للبغض الجماعي ؛ وهذا لا يحدث إلا عند التلاميذ المشرفين علي دور البلوغ ، أما الصغار فربما أظهروا طيشا وصخبا ولكنهم غير قادرين علي تلك الحالة العنيفة المبيتة المنظمة . الصخب والضجيج خاصتان من خصائص الذكور ، أما البنات فيتضاحكن ويهزأن ، ولكنهن لا يصخبن عادة بأصوات مرتفعة ؛ فالصخب والضجيج لا يتجهان إلا نحو المعلمين الذين لا يضمرون حبا لتلاميذهم ، والذين يبدو عليهم ، في الوقت نفسه ، شيء من دلائل الضعف . قد تختل سلطة الأساتذة حالما يشعرون بمرض ما ، أو بانحراف في المزاج ، أو عندما يكونون بحالة حزن أو حداد ، أو إذا أصيبوا بما يعكر حياتهم الزوجية ؛ كما أن من أهم دواعي اضطراب نفوذ المعلم تهديده التلاميذ بعقوبات يهملها ، أولا يستطيع تنفيذها . ولا

يجب الاعتقاد أن التلاميذ يندفعون بطبيعتهم إلى هذا النوع من رد الفعل في الصخب والضجيج الذي لا يكون غالبا إلا تعبيرا عن حالة من الفشل والقنوط إما عقلية ، لأن الأستاذ لم يسهل لهم مهمتهم ، وإما عاطفية لأنهم لم يجدوا فيه السلطة اللطيفة الخبرة التي هم بحاجة إليها . و إلى جانب هذا الشغب الذي يبديه التلاميذ نحو معلميهم هناك انفعال عاطفي آخر يظهرونه حيالهم وتأخذ هذه العاطفة عند البنات شكل حب عميق سواء أكان الأستاذ رجلا أم امرأة ؛ أما عند الصبيان فانها عبارة عن اجلال وتعظيم ، حتي أنهم ليتخذون أستاذهم مثلا أعلي في كل شيء ؛ وفي هذه الحالة فان الأستاذ يترك في نفوس التلاميذ انطباعات بالغة الأثر في شخصياتهم وسلوكهم . وهكذا فان المدرسة وسط إنساني تنمو فيه استعدادات الطفل للحياة الاجتماعية بفضل التجارب الكثيرة والاختبارات التي يشاهدها في مدرسته . ونكرر القول إن هذه التجارب ، وهذه القضايا ، ضرورية جدا للنمو النفسي عند الولد ، وان النجاح يزيد في قوته ، بينما يضعف اخفاقه المتسلسل امكانياته الحيوية ، ويدفعه نحو أمراض عصبية وخيمة . والتربية التي تعرف كيف تلائم بين الاختبارات ومدارك التلاميذ العقلية والأدبية ، فتجنبهم الفشل واليأس ، تقوم بعمل عظيم الأهمية بتهيئها نشأ قويا بشخصيته ، وقادرا علي تقديم إنتاج كبير ، كمية وقيمة ، فتنمية الشخصية وتربيتها ، وحماية الطفل من الأمراض العصبية خير بكثير من التربية التعليمية التي تصب في أدمغة مشلولة .

الفصل الخامس

الطفل الكسول

يحمل الانسان عاطفتين متباينتين حيال العمل نفسه. فكلما كان العمل يحمل طابع الإكراه أو لا ينسجم مع رغبات الشخص فإنه يبدو كريها إنما بوسع الانسان أن يبتدع مجهودات كثيرة الشبه بالعمل غير أنها ذات صلة بتداعي أفكار أكثر بهجة. إذا فالشعور والرغبة هما اللذان يدفعان إلى القيام بعمل ما أو يحولان دونه ، وهذا الاعتبار يفضي بنا إلى كنه المسألة التربوية المتعلقة بموضوع الكسل. إن فكرة اعتبار العمل نوعا من العبودية المؤلمة التي يجب قبولها بدافع حب التضحية ومزية الفضيلة ، وفكرة اعتبار الكسل نوعا من التنعم بالراحة اللذيذة فكرتان قد يمتان لدي بعض علماء التربية الأسبقين. وكلما قل انتاج التلميذ دون ان تبدو عليه مظاهر البلاهة اعتبر كسولا ، وغالبا ما يكتفي الكبار المسؤولون عن تربية الأحداث بهذا الحكم كي يدفعوا المسؤولية عن أنفسهم فإذا لم يعمل التلميذ كان ذلك دليلا علي تفضيله نقيصة الكسل علي فضيلة الاجتهاد فيجدر إذا معاقبته لتخليصه من خمول البطالة ولحمله علي أن يري عناء العمل أخف وطأة من ألم العقاب. ولم يتبادر للذهن التساؤل عن سبب رفض التلميذ أو تركه عملا ما كان يجب اعتبار القيام به دليلا علي الصحة النفسية ومن جهة أخري كلما كان المربي عاجزا عن جلب انتباه تلاميذه لما يلقيه من الدروس ازداد لجوءه

إلى التذرع بأن الكسل هو النقيصة العامة التي تسيطر علي تلاميذه بشكل فطري . وإذا ماقل انتاج التلميذ عزي ذلك دائما إلى الكسل ولجئ دائما إلى علاج واحد هو العقوبة وقد تمضي سنوات طويلة علي استعمال طريقة الشدة والعقاب ، دون جدوي ، تنجلي علة المرض الحقيقي التي دفعت بالتلميذ إلى الكسل . فيلحظ أنه مثلا ضعيف السمع أو البصر ، أو بطئ الفهم ، أو انه قصير البصر أو بعيده ، لايتبين ما علي اللوح أو ما في كتابه الا بصعوبة . وقد دلتنا التجارب ، ان التلميذ لا يستطيع الافصاح عن علته قبل بلوغه الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره لأنه لا يدركها تمام الادراك قبل هذه السن.

فعندما نحكم بأن تلميذا ما هو مبتلي بالكسل ، انما نعتبر مرض الكسل بسيطا إلى درجة لا توجب الاهتمام بالبحث عما إذا لم يكن في ذلك نذير بوجود مرض نفسي خطير كالخبل المبكر والاضطرابات المصحوبة بالتشتت الذهني . ويندر أن يقوي أحد هذه الأمراض مالم يكن أصاب التلميذ قبلا زجر شديد وعقوبات مختلفة . وهنا تنجلي نتيجة الاختبارات العقلية التربوية . فيتحتم إذا تحليل الكسل المزعوم ، بدقة وعناية فائقتين ، حتي إذا ما ظهر أنه غير ناتج عن علة جسمية وجب اللجوء إلى اختبارات نفسية للبحث عما إذا كان امتناع التلميذ عن العمل لا يشير إلى تمرد حقيقي ، و إذا كانت بلاهته لا تشكل نوعا من الاضراب أو الاحتجاج (كالحصان الذي يحرن ويمتنع عن السير عندما تساء معاملته) أو إذا كانت ناتجة حقيقة عن نقص في المران النفسي والشجاعة . ففي حالة التمرد اللاشعوري ينخفض الانتاج

المدرسي فجأة ، بعد أن كان قبلا في حاله طبيعية ، كما أن فعالية الولد الحيوية بانحرافها عن الأهداف المرسومة ، تميل إلى الاتجاه تلقائيا ، نحو ميادين أخري وتصبح وقتئذ أمام كسل مقصود ، إذ نري التلميذ كسولا مع أستاذ معين وأنه غير كسولا مع استاذ آخر أو أنه يتقاعس عن أداء واجباته المدرسية بينما هو يلعب بنشاط مبرهنا علي تمتعه بكامل قواه . في هذه الحالة فبدلا من أن يكون التلميذ خاملا فانه يوجد نشاطه إلى نزاع غير مباشر مع معلميه حتي أنه يكاد لا يجد لذة إلا في معا كستهم ، وإحباط مساعيهم . وعلي كل حال فان خموله يكون عبارة عن شكل مقنع للعدوان. وهذا الكسل الكاذب ليس إلا نوعا من الاستفزاز أو اليأس، وعند اكتشاف حالة كهذه يجب اللجوء إلى الأبحاث التي تمكن الوقوف علي درجة كونها شعورية وإرادية أو آلية لاشعورية . سبق أن تحدثنا عن الحصان الذي يحرن ، ويمتنع عن السير مهما ناله من الضرب والتعذيب لنشير إلى قوة الغريزة وعملها في هذا السلوك. فالمقاومة المنفعلة تلاحظ أيضا عند بعض الحشرات التي تتظاهر بالموت ، كلما فاجأها خطر ، وهذه المقاومة هي الوسيلة الوحيدة للدفاع عن النفس عند الضعفاء ؛ وقد التجأت اليها الحياة منذ ان وجدت الكائنات الحية الأولي . فالولد الذي يتصرف هذا التصرف ، بدافع آلية موروثة قديمة ، يشعر صادقا بعجزه التام عن التصرف بشكل آخر .

وعلي هذا الاعتبار ، فان أشد التدابير التربوية قد تبقي بدون جدوي ، هذا إذا كانت لا تعمل علي تحطيم كل ما في نفس الولد من مرونة ولين طباع ، إذا فالتدخل الحكيم الوحيد هو في تخفيف النزاع الداخلي

، وحله بنوع من العدالة التي يستطيع الولد فهمها وتقديرها ، لأن غرائزه الاجتماعية هي المعنية في هذا الشأن. و إذا كان الأمر يتعدى الكسل الكاذب ، فربما كنا امام بلاهة نفسية حقيقية ، قد تكون قريبة من التعريف العامي للكسل ؛ هذا إذا لم يكن مقصودا ولا مختارا بصورة إرادية ، وربما كان مبعث البطالة هنا فقدان تلك اللذة التي تجدها المخلوقات السليمة في العمل والفعالية؛ فالشخص الذي يكون في هذه الحالة لا يمكنه ان يجد ، كغيره من الناس لذة في الجهد حتي ولو كان ناجحا بينما يجدها في الاسترخاء ، والامتناع عن العمل . إن الحياة النفسية في زمن الفطام مشحونة بطاقة عظيمة من الفعالية . ففي هذا الزمن يمتزج تذوق الفعالية بالحياة نفسها ؛ والطفل الصغير في الوقت ، الذي يعمل فيه علي مضغ اغذيته الجديدة وهضمها ، وتذوق الأطعمة التي لم يألفها بعد ، يتعلم أيضا أن يخطو خطواته الأولي ، وأن يقوم بحركاته الارادية الأولي ؛ لقد كان حتي الآن يحيا حياة منفعلة : فجميع حاجاته (من غذاء ودفء ورعاية وعناية الخ ...) كانت تأتيه من الخارج ، دون أن يصدر منه ما يشير إلى طلبها ، (إلا الشكوى والبكاء) .
لذلك فان ظهور الفعالية ، مع تمرين العضلات الارادية ، والتعود علي جميع الحركات الممكنة ، تسير مع نموه الطبيعي الذي يجب أن يقتضي استعدادا لكل نجاح . فكلما توصل الطفل إلى قوة جديدة ، شعر بازدياد قيمته الحياتية ، وقويت ثقته بنقسه . فلذته آنئذ هي لذة القدرة ، والظفر بشيء جديد . وقد تحتمل هذه الحالة الجديدة مخاطر ومحاذير لا يستهان بها ، ففي الحياة الحيوانية ، تتمثل في ضرورة بحث الحيوان

الصغير عن وسائل عيشه بنفسه ، دون أن يستمر في الحاجة إلى عناية أمه . وكذلك فراخ الطير ، بعد تفريخها بزمن قصير ، تلقي بنفسها إلى خارج العش ، غير عابئة بما يأتيها من وراء ذلك من المخاطر ؛ حتي أن الكثير منها ليهلك ، في هذه المناسبة .

أما الأطفال فكثيرا ما تسبب لهم الخطوات الأولي عثرات وجروحا ، كما أن حركاتهم الأولي قد تجلب لهم حروقا ورضوضا وآلاما مختلفة ؛ كل ذلك بسبب جهلهم ما يحيط بهم . وهذه هي المصاعب الأساسية في الحياة الفعالة وتوجدمحاذير أخري مصحوبة بانطباعات مؤلمة كالأمراض والحوادث والعوارض المفاجئة التي تولد شعور الخوف والحذر عند الطفل فبدلا من أن تنمو لديه روح الرياضة التي ربما تدفعه إلى تذوق تمرين أعضائه وتجربه قواه في إحراز بعض البطولات فانه قد يحتفظ بالخوف مع تجنب الاقدام علي أي جهد حذر الوقوع في شيء من المخاطر التي سبق له أن ذاق مرارتها ؛ كما أن وثبة القوي الغريزية نحو الفعالية قد تخونه أيضا عند الحاجة والضرورة . وقد تأتي الفرصة المناسبة فيما بعد ولكنها تكون مصحوبة بمحاذير وعقبات كأداء ، كالبذور التي في غير أوانها . إنه ليصعب علي النفس التخلص من الترابط الذي يصل الجهد بالهيجا نات المؤلمة وهذا يقوي مع الزمن في الوقت الذي يتراجع فيه الطفل إلى حاجاته الأولي التي سبقت هذه المرحلة الدقيقة كالراحة والطمأنينة والغذاء بدون جهد ولا مخاطرة . ثم يجد الطفل هذا الانحراف المتضاد في اندفاعه إلى تنمية عضلاته بحركاته الجسمانية وتقوية قدرته الحيوية . وفي الوقت نفسه ، يري

مضطرا ، بدافع وضعيته النفسانية إلى حالة الجمود والركود . وإذا ما صادف الكسل الذي يتحدث عنه الناس شيئا من الحقيقة ، فانما مرده إلى حالات مرضية . والكسول من هذا النوع هو غالبا ما يكون متأخرا في الميدان العاطفي و (ذا فطام ردئ) وآلية غريزية ناقصة ، ويعرف بالخصائص التالية : تستهويه ملذات المائدة ، لأن الغرائز الهضمية في طفولته الأولي لم تتلق التمارين الكافية ، كما يستهويه الخمر بصورة خاصة والمخدرات بصورة عامة لأنه يجد فيها الوسيلة التي تعطفه عن مجابهة حقائق الحياة ، وتدفعه في سبات المهد ، حيث يجد نعومة طفولته الأولي . ولهذا السبب نفسه ، ايضا يجد نفسه منجذبا بالغريزة المرضية للموت ، فيفكر بالانتحار كلما اعترضته عقبة ، أو محنة من محن الحياة . ومع ذلك فهو ، في الوقت الذي يبتسم فيه الموت ، يخشي شبح الشيخوخة . وما ذلك إلا لأن الشيخوخة تمثل له مراحل كثيرة يجب العبور بها ؛ وهو طبعا لا يأنس بعبور هذه المراحل ، لأنه يخشي التجدد والتغيير ، يل ويخشي كل ما يطرأ علي حياته العادية الرتيبة ، أو يقتضي منه جهدا . وبقدر ما يكره العمل فانه يتلذذ بالنظر إلى الغير وهو يعلمون ويعيشون . إنه ينتقد كل ما يري ويسمع ، ويسفه رأي الناس ، دون أن يجهد نفسه بوضع حل من الحلول لما نتقد وسفه ؛ ولما كان أنانيا بالغريزة ، فلا تهمه الحوادث الخارجية إلا بقدر علاقتها بشخصه وانه ليجهل أو يتجاهل المبادلات الاجتماعية معتبرا أن من الأمور الطبيعية أن يستفيد من الغير ولا يفكر أصلا باسداء خدمة لأحد إنه يخشي الحرمان ويخاف الخسران إنه شديد الشح ويرغب في النوال؛

إنه عاجز عن وثبات الحب خوفا من أن تخرجه عن حدوده الضيقة ، ولكنه يتعلق بالأشخاص الذين يحسنون إليه ، كما لو كانوا ملكا للاستثمار ، ويخشي الحرمان منهم . وكرجل ، فهو يسعي لتأمين العناية به من قبل المرأة ، وكامرأة ، فهي تضغط بجميع قواها علي زوجها وذويه، دون أن تصرح يوما من الأيام أنها مسرورة مما تنال منه . هو حسود ، ولكن بصورة منفعلة ، لأنه عاجز عن العدوان ، وقد يقامر لأنه يأمل ان يقوده الحظ والصدف إلى الثروة ؛ وان فكرة واحدة تمسكه هي الخوف من الخسارة ، ويبدو جبانا بقدر ما يكون كسولا إن العالم النفسي الخبير يستطيع تمييز هذه الفوارق البارزة حتي عند الطفل الصغير ، حيث يكتشف هنا كسلا حقيقيا ، غير ان ولدا كهذا يكون غالبا رخوا خاملا ، حتي انه لا يتورع عن التمارض تخلصا من بعض الدروس واكتسابا للعطف والشفقة . ومن جهة أخري فانه يعرف كيف يتحبب إلى الكبار تخلصا من نقمتهم ، وثورة غضبهم . يقال عنه إنه يستطيع الاجتهاد والتقدم ومع ذلك فقد لا نجدي هذه الوسيلة نفعا . إن الواجب الأول للمربي حيال الولد الكسول هو معرفة سبب حالته ؛ فيجب ان يتأكد انه غير متأت عن اضطراب حسي أو غددي ، ولا ناتج عن بداية مرض عقلي ، إذ في مثل هذه الحالة يخرج الأمر عن نطاق صلاحيته ، ويصبح من اختصاص الطبيب ، ثم يجب ان يتحقق ان ذلك غير ناتج عن انعكاس تمردي ، ولا عن انغلاق إلى لا مكانيات الولد العقلية . وفي هذه الحالة يجب ان يفهم اي جرح عاطفي قد اوقف الاندفاع الحيوي عند الطفل ، أو ما هو المطلب الخفي أو الحقد الدفين

المخبوء في اللاشعور ثم يسعي لاطلاع الولد علي ذلك عاملا على

إيجاد التعويض المطلوب مع التشجيع اللازم . ومن الواضح ان كل ضغط أو لجوء إلى التخجيل (كقبعة الحمار مثلا) يكون ضغثا علي إبالة ، ويزيد النقيصة زيادة قوية . واخيرا انه إذا كان في حالة من التأخر الوجداني الظاهر ، فيجب ان يلجأ إلى اختيار نفسي عميق ، والمعالجة بطريقة نفسية ايضا لأن هذه المعالجة غالبا ما تكون سهلة ونافذة وخاصة قبيل البلوغ . وتقضي المعالجة بأخذ التطور العاطفي من النقطة التي كان قد وقف عندها ثم ان يثار عند الطفل تذوق الجهد والعمل والانتصار بفضل المكافأة التي قد تعقبه فيحسن اذن ان تعرض علي الولد ظروف للانتصار سهلة المنال ، لا عطائه مجالا لتذوق لذة النجاح . ان لدي كل ولد من حب الاستطلاع ما يكفيه للاستجابة إلى نداء من هذا النوع . وفي زمن البلوغ ، الزمن الذي تصحبه هيجانات وحماس يجب استدعاء هذه الفعالية الناشطة التي إذا ما وجهت توجيها حسنا قامت بأعمال باهرة في ميدان التطور العاطفي كما انها إذا لم تسعف الاسعاف الملائم تكون عرضة للاخفاق بعد تردد بائس .

الفصل السادس

الولد الكذوب

يحدثنا علماء الأجناس أن إنسان القبائل الابتدائية لا يميز بوضوح بين ما يراه من خلال تصوراته وأحلامه وما يراه في الحقيقة . فيظهر من هنا أن إدراك الحقيقة عند الانسان المتمدن يضعف أو يزول لدي حدوث أي تهيج وجداني. كل منا في حقل اختصاصه يشكو قلة الصدق في أحاديث الغير وذلك لعجز كل فرد عن قياس ما في نفسه؛ اذ لا يستطيع ادراكه الا في سواه. ومن السهل معرفة تحوير الحقائق وقلبها وتبديلها فإذا أحذنا مثلا حادثة ما من الحوادث التي شهدناها ثم سمعنا شهودا يسردون وقائعها أمام المحكمة ؛ فإنهم يختلفون فيها، وكل يؤيد قوله بما يستطيعه من البراهين القاطعة، وكم استقي الأدب والمسرح من الحوادث المماثلة لهذه . كما أن الفلاسفة قد برهنوا في مجال انتقاداتهم للشهادة ان الرؤية الدقيقة للأشياء تكاد تكون نادرة الحدوث . لذا يكون من الحمق أن نتطلب من الولد باسم التربية موضوعية اكثر من التي يستطيعها الكبار ومع العلم ان هذه الصفة لا تبلغ الا مع النضوج العقلي . فالولد لا يتحدث فقط عن بغيته بل انه يؤمن بها إلى حد ما حتي انه ربما تحدث عنها لتعزيز ثقته بها . كثير من الناس إذا ارادوا اثبات امر ما . وهم يشبهون بحقيقته ، سعوا اولا إلى اقناع من حولهم بصحته ؛ فإذاشاع رأي بين جماعة مثلا احتل نوعا من المكانة

والاعتبار ، ومضت الغرائز الاجتماعية في تأييده ، حتي ينتهي الأمر بمبتدعه نفسه إلى تصديقه بدوره . وكذلك الحال عندما نريد ان نؤيد شيئا نتمناه ، أو لا نؤمن ايمانا تاما بصدقه . وهذه وسيلة تصل الغريزة عن طريقها إلى اليقين ، غير تاركة أي مجال للشك . قد يلجأ احيانا إلى الكذب تبريرا لموقف أو تخلصا من عقوبة ثم ينتهي الأمر بمن لجأ إلى هذه الطريقة بأن يصدق نفسه ويثق ببراءته ، فيعود إلى تكرار كذبه ،تخلصا من شعور ادانة النفس . فالكذب هو حاصل الغريزة قبل أن يكون نتيجة لحساب عقلي .

ومن جهة اخري ، فالمخادعة تحتل مكانا كبيرا في المكافحة في سبيل الحياة . فالتلون والمراءاة ، والهيستريا ، كلها أنواع من الكذب ، كما أن جميع التنقلات الوجدانية التي تنظم الحياة العاطفية هي أيضا أنواع من الكذب والخداع . يوجد عند الطفل نوعا من الكذب يرتكز علي شيء من الوهم والخيال فقد يتحدث مثلا أنه قبل لحظات حوادث مدهشة في بلاد بعيدة . ومن الواضح أنه يتعمد ان يحمل قوله محمل الجد ، فعندما يتحدث عن شعوره وأحلامه ،إنما يقصد اشراك الغير بخيالاته وتصوراته ؛ و إذا ما شاركه من حوله بهذه الأحلام ، فانها تصبح لديه أقرب إلى الحقيقة والواقع ؛ حتي انه لينتهي هو نفسه إلى تصديقها كليا بعد وقت ما . ولا يتورع بعض المربين المتزمتين عن تعنيف الأولاد في مثل هذه الحالات لاختراعهم امورا تبعد عن الحقيقة . يؤكد علماء التربية أن أوهام الأطفال لا تستوجب اللوم والزجر غير ان الأمر يختلف تماما إذا ما لجأ الأطفال متعمدين إلى نكران ما يسألون عنه تخلصا من

ملام أو سعيا إلى انزال الضرر بمنافس ما . فهذا كذب حقيقي، ومبعث (الكذب) أربعة اسباب : الشعور بالضعة الشعور بادانة النفس العدوان الحسد . فالأمثال التي سبق ذكرها ترتبط بشعور الضعة اذ ان الكذب الأكثر وقوعا يهدف إلى التعويض أو ابعاد الادانة . فالولد ينكر الخطأ الذي ينسب اليه ، حتي ولو اخذ بالجرم المشهود (كتلك العذراء الكاذبة التي احتجت اثناء الفحص السريري) وانه يجهد في اختلاف الحجج والأعذار لابعاد الشبهات، وأن اصراره علي النكران امام الحقيقة الواضحة أو انخراطه في قصص بعيدة عن التصديق يظهر عدم منطقية ما يدعيه . كما يظهر طابعه الانعكاسي أو الغريزي ويندر ان نري اولادا يدعون ارتكابهم اخطاء لم يرتكبوها. والكذب العدواني أو (الحاقد) يظهر في اتهام احد ما بارتكابه خطأ لا تخلصا من تهمة وإنما ابتغاء الحاق الأذى بالغير . والميل إلى الكذب ينطبق بصورة عامة علي نوع من رفض الحقيقة ، ومتطلباتها ؛ كما هو الحال في الكسول الذي بحث عنه في الفصل السابق . وبالحقيقة إن الكسالى غالبا ما يكونون كاذبين ، لأنهم يميلون ايضا للتهرب من وجه الحقيقة ، سواء في ميدان العمل أو الفهم . فأمام الجهد اللازم لإصلاح حالة ما ، ينام الكسول ويحلم الكذوب . وفي الكذب نوع من استدعاء قوة سحر الكلام ، أو الفكرة السحرية عند الأقدمين ، والأحداث الذين لا يميزون بين المعجزة والواقع . لا شك في ان الكاذبين هم من المتأخرين عاطفيا . فكذبة مرتبة وفي ظروف معينة ، قد تجلب نفعا كبيرا ؛ ولكن تنتهي بسرعة إلى افساد صاحبها. ويبدو أن الانسانية في حاجة إلى أن تحيط بها بعض

الأوهام سواء أكانت جماعية (كالأساطير والخرافات) أو عامة (كالمبتدعات الفنية) أو شخصية (كالأحلام) ؛ فالوهم هو دائما شيء مطلوب لتخفيف شبهة أو خوف أو ألم . وينتج الكذب من الخلاف بين الواقع والمحسوس من جهة والرغبة والعاطفة من جهة اخري ؛ وهذا يفسر مقاييس الاختبارات النفسية التي تكشف عن الكذب (تأخر ترابط الأفكار الحرة في عناصر الأشياء المخفية) أو بشكل أوضح عن اضطراب ناتج عن الفاصل الذي يفرق بين الحلم والذكري ، والذي يبدد (التركيب العقلي) أو التركيب العاطفي (للأنا) ويمكن ان يعزي الشعور بإدانة النفس إلى انفصال كهذا. ومن الأمور المسلم بها ان كثيرا من الأولاد عندما يتهمون بالكذب قد يبدو عليهم الاضطراب مع احمرار الوجه ، في حين انهم ابرياء ، ولم يرتكبوا الخطأ المعزو اليهم . انهم لم يرتكبوه فعلا ، بل كان عندهم الميل لارتكابه . ولهذا ، فالاضطراب واحد ، لأن نزاع العواطف واحد ايضا . ولما كان ادراك واقع الحقيقة ضعيفا عند الولد ، فان بعض الأطفال يعترفون بارتكابهم اخطاء هم ابرياء منها ؛ انهم يشعرون بوطأة ضيق ادانة النفس الشديد فيتهمون انفسهم تخلصا من الشك والريبة ولكي يقعوا ثانية عن طريقة مصطنعة في اوضاع حقيقية ، مهما كانت المحاذير المتوقعة . هكذا كان يفعل كثير من المتهمين تخلصا من التعذيب عندما كان وسيلة للاستجواب والتحقيق . وقد يتعزى المرء غالبا في اعطاء آلامه شكلا ما فمرضي الأعصاب يتمثلون حلمهم الرديء بواسطة عارض ما (كالألم بدلا من لذة ممنوعة مثلا) ؛ اما المجرمون فلا شيء يمنعهم من تحقيقها . يدفعنا كل ما

تقدم، إلى الاعتقاد بأنه لا يجوز الحكم علي كذب الولد بتسرع وارتجال. و إذا تحرينا العدالة يجب ان نقيسه بنفس المقياس الذي يقاس به سوء قصد الراشدين . فإذا كذب الولد تخلصا من مسؤولية ما ، فمن الواضح ان ضعفه حيال سلطة المربين ، هو الذي يدفعه إلى اخفاء الحقيقة . ولا يخفي انه لكي نستطيع الجهر أمام الأقوياء بكل ما نعلم بكل ما نفكر به يجب أن نكون أقوياء لا نخشي عاقبة تصريحنا . أما الرقابة العقلية عند الولد فهي في طور التشكل ، بينما غرائزه الموروثة لم تكن قد أوقفت فعاليتها البدائية. وفي الحقيقة ليس من واجب التربية المثالية أن تحكم وتدين بل واجبها الفهم والمساعدة. فالولد الذي يكذب إنما يعبر بكذبه عن عدم رضاه عن الحقائق الخارجية أو عن نفسه أيضا. فالعقوبات المختلفة التي يمكن أن تبتدعها اهواء المربين لا تستطيع ان تحمله علي تذوق الحقيقة. هذه العقوبات يقصد بها إفهام الولد أن الكذب نقيصة تدفعه إلى التفنن في تقنيع كذبه بألوان مختلفة من الأساليب أي أنها تسوقه إلى درجات من الكذب أشد خطورة من ذي قبل أو إلي التزام السكوت تخلصا من المزالق . وهكذا فإن العقوبة لا تبدو قليلة الجدوى فحسب بل شديدة الخطورة على نفسية الأولاد وحملهم علي احكام أساليب كذبهم بصورة تجعل السامع يعجز عن التفريق بين اقوالهم وحقيقة الواقع . ولا يخفي ما في هذا من الخطورة والحكمة تقضي بمعالجة كذب الأولاد كنوع من اللعب أي أن نتقبله بصورة تجعلهم يدركون أننا غير مخدوعين بما صدر عنهم كما نجعلهم يفهمون أن كذبهم هذا ليس جرما كبيرا إنما هو هنة صبيانية يمكن

التسامح عنها نظرا لصغر سنهم ولكنها غير مقبولة من الأشخاص البالغين الأشداء. وفي الوقت نفسه فإنهم يتعلمون تفضيل الحقيقة كما يتعلم المرء تفضيل الحياة الواقعية علي أطيب الأحلام عندما تؤمن له الحقيقة والواقع بلوغ امان أثبت واعذب من ملذات احلامه وتخيلاته . وعلي المربي الصالح ان يبحث عن شعور الضعة المخبوء ، أو النفسية الرديئة الغامضة اللتين ينبعث عنها كذب الولد ، ثم يعمد إلى اختبار دقيق لاتخاذ العلاج اللازم ماديا ومعنويا . وإذا ما تحقق للولد ان يكون في سلام واطمئنان مع نفسه ومع غيره فمن المؤكد انه لا يعود يشعر بحاجة إلى الكذب .

الفصل السابع

الولد السارق

لا يمكن اعتبار الولد سارقا ، إلا إذا كان يدرك معني التملك . فالطفل الذي لم يبلغ السنتين من عمره بعد لا يبلغ هذه المرحلة من المعرفة ، ولذلك فهو ليس بمسئول إذا ما تناول أو أخذ شيئا وجده أمامه . أما فكرة الملكية واحترامها فلا تزال تعاني كثيرا من العدوان رغم القوانين الموضوعة لحمايتها. وفي الظرف الذي يضع المجتمع فيه ضمانات فردية هادفا إلى تأمين الحاجات والمنافع فإن كل فرد يكون علي استعداد للتضحية بجزء من شهواته ومطالبه مع قبوله القيود والأنظمة الموضوعة لحماية الملكية. وكذلك يتعلم الولد احترام ملكية الغير عندما يفهم أن حاجاته ستكون مؤمنة بالمقابلة . وهذا من أهم المظاهر الجوهرية للغرائز الاجتماعية ؛ ولهذا السبب فالطريقة المثلي لتدريب الولد علي احترام الملكية هي تأمين وضمان لعبه وملابسه . وجميع حاجاته المعقولة ورغباته المقبولة . وهكذا فلا يبقي هناك من دافع في نفسه يدفعه لمد يده إلى ما يملكه الغير . إن مفهوم الملكية يعود إلى الغريزة فإذا ما أسيئت تنميتها وتربيتها انقلب الولد سارقا .

ولا بد من عاملين اثنين لتكوين السارق هما : الشعور بالحاجة للتملك ورفض العقد الاجتماعي . وينتج الشعور بالحاجة من الاضطراب

الغذائي الذي يحصل في الأشهر الأولي من الحياة أي الزمن الذي تتفتح فيه الغرائز الهضمية ؛ فأما أن يكون نتيجة قلة في لبن الأم أو عدم انتظام في وجبات الرضاعة أو عدم كفايتها أو عدم احتمال الطفل للرضاعة الاصطناعية أو من تألمه من فطام مبكر كان شديد الوطأة علي الرضيع. ومن البديهي أن الذاكرة لا تحتفظ بهذه الظروف وذكرياتها إلا أن شعور الحاجة والحرمان يبقي دفينا في النفس بشكل غامض ولكنه دائم وقد يثبت بعدئذ في أشياء مختلفة ؛ فالغريزة المعاكسة كما قلنا تظل مشلولة الفعالية بصورة نهائية حتي إذا اقترن معها رفض العقد الاجتماعي أدت إلى هذه النقيصة التي يقويها بل يوجدها قمع الغرائز الاجتماعية في حالة تشكلها عند الولد. ويكفي أن يمنع عن الولد امتياز تملك شيء ما في حالة نمو حاسة التملك عنده لإفسادها وقلبها وإن انطباع الجور الواقع من شأنه أن يضاعف هذه النقيصة الاجتماعية مضيفا إليها ميولا عدوانية شديدة الخطورة.

يوجد بين بعض الآباء من يدفعهم الحمق رغبة في حمل أبنائهم الذين لم يتجاوزا الرابعة أو الخامسة من أعمارهم علي التحلي بفضائل النزاهة والكرم والاحسان وما إلى ذلك بحيث لا يتورعون عن حمل هؤلاء الأطفال علي وهب أعز ما يملكون من اللعب والأشياء ومن الطبيعي أن لا يتوصل هؤلاء الطفال إلى التحلي بالفضائل المرجوة لأنها تكون نتيجة بلوغ ونضوج ؛ بل يضطرهم ذلك أن ينقلبوا بصورة أكيدة ويصبحوا شديدي الميل إلى السرقة . ولفهم النزاع الخفي غير الشعوري احيانا يجب البحث عما يسرقه الولد . والفائدة التي يجنيها من سرقته ؛

فإذا سرق حلوي مثلا ليأكلها خلسة عرفت من هذا عواقب حرمانه في طفولته الأولي كما يجب بالتالي البحث عن أي حرمان أو اية حاجة حاضرة قد عملت عن طريق المشابهة علي إيقاظ القوي الكامنة . ولا يشترط أن يكون الحرمان ماديا فحسب فقد يكون أحيانا حقيقيا أو وهميا سواء كان في مجال العاطفة أو الرعاية أو الدلال أو حرمانا من القدرة أو التقدير في مناسبات الفحوص المدرسية أو الرغبة في الحصول علي شيء غير قابل للتحقيق. و إذا سرق الولد ولدا آخر فما إلا بدافع منافسة دفينة مكبوتة و إذا سرقت بنت أداة من أدوات الزينة أو سرق غلام قطعة من أدوات السلاح فذلك دليل علي رغبة السيطرة . واستعمال الشيء المسروق له أيضا معان خاصة ؛ فبعض الأولاد يسرقون نقودا لصرفها أمام اترابهم وكأنما يريدون بذلك التعويض عن شعورهم بالضعة ، وبعضهم يسرقون التقديم هدايا رغبة في ظهورهم بمظهر اللطف. وهكذا يبدو أن اتحاد عدم الاكتفاء الهضمي مع رفض النظم الاجتماعية من مستلزمات تكوين السارق . ولكي تنتقل هذه النقيصة إلى ميدان العمل يجب ان تدعمها احيانا عوامل عاطفية ؛ كالشعور الغامض بإدانة النفس والشعور بالقنوط . فقد يسرق الولد احيانا ليقف علي نوع جرمه ليتوصل إلى العقوبة لإدانته . وفي هذه الحالة ، فكلما إزدادت مكافحة المحيط للسرقة باتت هذه اشد اغراء وأقوي جاذبية . وبالعكس من ذلك فالتمرين علي السرقة عند الناشئين بين اللصوص لا يحتاج إلى مثل هذه العوامل لأنه ينتج عن تقليد بسيط حتي أنه يعتبر أحيانا بمثابة دليل علي الكفاية كما لو كان نجاحا في عمل ذي بال. وهكذا يتم

التقليد دون حدوث أي نزاع نفسي، ومن المسلم به أن السلب أثناء الحروب مثلا هو من الأمور المباحة ، ولذا فلا يجد أحد غضاضة في الاستيلاء علي مال غيره . ويشير هذا غلي أية درجة تكون السرقة رد فعل للقواعد الاجتماعية ، وإلي أية درجة يكون احرام الملكية هزيلا واتفاقيا . ويفهم أيضا أن عادة احترام الملكية ، بعد أن كانت مفروضة بدافع الخوف من سلطة القانون ، كيف أصبحت أخيرا طبيعة ثانية .. أما الأمر عند الأطفال فليس كذلك ، بسبب قربهم من الغرائز الاولية ، ولأنهم أقل مقاومة للميل إلى السرقة من الكبار ؛ فبدلا من معاقبتهم عقوبات تأديبية ، قد تنتهي إلى افسادهم يفضل استدراجهم إلى تقبل النظم الاجتماعية ، الأمر الذي يحصل بسهولة قبل البلوغ ، ويعطي نتائج باهرة ثابتة . أما السلوك الذي يجب أن نتخذه حيال الولد السارق ، فهو العمل دائماً علي اكتشاف نزاعه النفسي سواء أكان شعوريا أم لا شعوريا ، ثم شرحه له ، والسعي لتأمين مطاليبه ، ولو في الميدان العاطفي تخفيفا لوطاءة شعور الحرمان لديه ، ثم يستحسن العمل علي تنمية غرائزه الاجتماعية ، بحمله علي تقدير المزايا التي يستطيع الحصول عليها ، من احترام حق الملكية سواء في الميدان المادي (بحصوله علي ضمان لملكية الخاص) أو في الميدان الأدبي (بحصوله علي ثقة المحيط وتقديره) : أما القول غلي الولد السارق غنه لص عديم الشرف ، وأن أمره سيفضي به إلى ظلمات السجون الخ .. فذلك مما يطع لديه خيط الأمل بالتحسن أو الخلاص . وبعكس ذلك فلا يجهل أن السارقين قد يظهرون كثيري الاهتمام ، بمن يعرفون أخطاءهم وعيوبهم ، دون أن

يزعزعوا ثقتهم بهم . وهذا أمر يلاحظ بوضوح في السجون . لا يمكن تهذيب الغرائز الاجتماعية بالشدة مهما اختلفت اساليبها ، وقد تدلنا التجارب علي أنه يمكن الحكم علي السارقين بأشد العقوبات ، دون تخفيف السرقات . و إذا شئنا أن نحمل الولد علي تقبل العقد الاجتماعي ، وجب علينا ان نجعل هذا العقد محببا ومرغوبا . كما يجب ان يتحلى المربي بالعدالة المطلقة . ولنبحث بين المربين الذين يهتمون حقوق الطفولة وملكيتها ، سواء الاباء الذين يتصرفون بلعب الأطفال دون رأيهم ، والأساتذة الذين يحجزون أشياءهم باسم النظام – وأخيرا يجب ان نعلم انه لا شيء أبلغ في مجال التربية الاجتماعية من المثل الصالح والقدوة الحسنة .

الفصل الثامن

الولد السيىء

لو حكمنا علي الناس بموجب مقياس الكمال المطلق لظهروا بمظهر الشياطين؛ أما لو أكتفينا بالحكم عليهم بالنسبة للمخلوقات الأخرى، لوجدنا أن الوحشية النامية بصورة عامة عند تلك المخلوقات لغايات حيوية، قد زادت من شراستهم، ليس لما يجدون في ذلك من لذة ولكن إذا تحرينا العدالة، وجب أن نقول أنهم اكتسبوا مقابل ذلك مثالية أدبية في حسن الطوية. ولسنا هنا في مجال التحدث عن شراسة الإنسان في أدوراه التاريخية، إنما يجب أن نبحث عن رداءة الأطفال، وكيف أن رداءة البعض نتجاوز مثليتها عند غيرهم. ولما كان الولد قريباً من الغرائز الأولية فمن الطبيعي جداً أن يظهر أكثر شراسة من الراشدين. فلن تجد بين الأولاد من لم يعتد في ظرف من الظروف، على أولاد أضعف منه. تنمو هذه الغرائز عند الإنسان مع ظهور أسنانه، وتستمر عاملة طوال حياته. وفوق ذلك فإن غريزة العدوان ستساعده على مقاتلة أشباهه، فالإنسان يمتاز عن الحيوانات بقدرته على الحروب مع بني جنسه، والمسألة الثانية ستكون عنده إما أن يقتل أو يُقتل لدرجة تجعل لكل قتل لديه معنى من معاني الأمن والسلامة. ويمكن تفسير السوء بأحقاد بمخاوف متراكمة في لا شعور الإنسانية الجماعي، فالإنسان عندما يأخذ دور الجلاد ، يتوقف عن اعتبار نفسه ضحية . وهكذا فإن المخاوف

التاريخية للإنسانية تميل إلى البطلان عند البعض ، بسبب الآلية المزدوجة للإيحاء الذاتي والحماية ، فينقلب الشخص جلاداً لينسى أنه قد يكون ضحية ، إنه ليوحي لنفسه بأنه الأقوى ، وفي الوقت نفسه فهو يحطم في شخصية الغير الشيء الذي أراد طرحه من نفسه ، كالضعف والخوف والهزيمة والخضوع . ومن المتعارف أن الخوف ينمي الرداءة . فالأولاد الذين تساء معاملتهم صغاراً سيصبحون قساة شرسين كباراً ، وإن طريقة العقوبات البدنية لا تنتج إلا شعوباً ظالمين . فالمشاهد الدامية ، والقصص المخيفة تثير القسوة والرداءة كرد فعل للخوف. وبالعكس فإن الأم والدعابة يخلقان اللطف واللين ، وإنا لنتوصل إلى اخضاع الحيوانات المفترسة وترويضها ، بإدخال الطمأنينة إلى نفوسها. وتكون شراسة الغرائز البدنية عادة ، وراء حاجزين متتاليين ، خلال النمو العاطفي ؛ فالغرائز الاجتماعية تدفعنا إلى احترام الغير ، ولو كانوا ضعفاء ، لكي نأمن بدورنا بطش الأقوياء ، كما أنها توحي الشعور بالأمن ، الذي ينتج عن الاتحاد ، وتوجه العدوان نحو الأشخاص الذين هم خارج الحظيرة ، أو خارج العرق أو الجنس . ويعمل التطور الجنسي الطبيعي على إظهار الحاجة ، إلى انتحال شخصية الشيء المحبوب ، في اندفاع عاطفي قد يمتد إلى سائر المخلوقات ، لأن مثالية الشباب في التضحية والبطولة تسبق غرائز القربى التي تدفع إلى حماية الضعفاء . وهذان الحاجزان قد يخطئان هدفهما ؛ فالرداءة الشاذة عند الولد لا تكون ناتجة عن تشبثه بمرحلة نمو الأسنان ، وعدم قدرته على متابعة تطور طبيعي فيما بعد فحسب ، بل إنه شخص تحمل في ماضيه قسوة شديدة ، ومخاوف مرهقة ، في

ظرف كانت في غرائزه الاجتماعية في حالة الظهور . إن شخصاً كهذا لا يمكن أن يجد الحب إلى قلبه منفذاً . وفي بعض الأحيان ، إن غيره مجتمعة ومكبوتة ، كالتنافس بين الأخوة والأخوات ، مثلاً ، تخلق نواة لحقد يمكن انتقاله، وكذلك تفعل اضطهادات الأولاد الآخرين وشراستهم وسوء معاملة الكبار القساة . كل ذلك يحمل الأولاد على أن يصيروا قساة أردياء بالفطرة، كان يبدو عليهم استمساكهم بشراستهم ، ورفضهم لكل قانون اجتماعي ، لدرجة جعلت من المستحيل اعادتهم إلى حالة المشاعر الطبيعية ، فكانوا كالمتوحشين ، لا شيء يستطيع تمدينهم ، وكالبهائم العاتية التي لا شيء يستطيع تمدينهم ، وكالبهائم العاتية التي لا شيء يلين طباعها . ويجب أن نكون حذرين حيال هذه المشاكل، وخاصة إذا تعلق الأمر بأطفال صغار، لأنه لا يستحيل الوصول معهم إلى نتائج مرضية إذا استعملنا معهم طرقاً تربوية صالحة . وقد يحالفنا النجاح في كثير من الحالات . ولكما تقدم السن بالأولاد الأردياء ، ازداد ميلهم إلى الأجرام ، وخاصة إذا كانت الغرائز الاجتماعية عندهم مختلفة اختلافاً عميقاً، ولذلك فمن الضرورة معالجة رداءة الطفولة باهتمام بالغ في سن مبكر قبل استفالها ؛ يجب التعرف أولا علي الخلل الذي أصاب غرائز الطفل في المرحلة الهضمية ، واخراجها إلى حيز الشعور ، والسعي لتحويل الشراسة الطبيعية نحو أهداف نافعة ، واقتراح مهن للمستقبل ، ذات اتصال بالتعذيب أو القتل ، ولكن في سبيل أغراض اجتماعية مفيدة (كمهنة الجراح والجزار ، وصانع السلاح ، والجندي ، والقاضي ، والشرطي الخ ...) وكما في الحالات السابقة ، يجب إثارة يقظة الغرائز

الاجتماعية ونموها بواسطة ميزات الأعمال التعاونية (كاللعب والمناسبات التي تساعد علي التفوق المحمود ، والتقدير ، والاعتبار الخ ..) يجب أن نخرج إلى ميدان الشعور مخاوف الطفولة ، والقسوة المنسية ، لكي نستطيع أن نربط في هذه الذكريات المستعادة ، الآلام الغامضة المقيمة في نفوس الأطفال ، ونصل إلى تصفيتها والتخلص منها . كذلك يجب اكتشاف الأحقاد المجهولة الأسباب ، كما يجب العناية في تخفيف المخاوف والضغائن ، وإشباع الحاجة إلى الحماية والأمان والاحترام ، التي لم تلق الاهتمام الكافي في الوقت المناسب . ومما لا ريب فيه ، أنه بقدر ما يكون التحرر شديداً ، يجب أن يكون اللطف والعناية ، فالواجب اتخاذهما في سبيل الاصلاح ، شديدين أيضاً . وقد ييأس ، في بداية الأمر ، الأشخاص الذين يأملون الوصول إلى نتائج سريعة ولكن مصاعب البداية لا يجب أن تعتبر مثبطة للهمم . يجب الاعتماد خاصة على المحبة التي هي بمثابة الحل الوحيد لجميع أنواع الشراسة . يجب أن نعد الولد لها بجميع الوسائل الطبيعية الملائمة ، بإقناعه أنه يستطيع أن يكون كغيره إذا ما عاد إلى طريق الصواب . وفي أغلب الأحيان ، فإن هذه الطريقة تنجح في كثير من الحالات عند الأطفال الصغار . وأخيراً ، نستطيع التأكيد أن كل وسيلة لا تعتمد على اللطف والمحبة والفهم ، قد تدفع بالولد الرديء إلى أخطر المهاوي .

الفصل التاسع

الولد الفاسد

تطلق عادة صفة "الفاسد" على الولد الذي يعتبر أنه يتهم بصورة غير طبيعية بالأمور الجنسية. ويتوقف ذلك على الفكرة التي يحملها المربي عن كلمة "طبيعي" في عالم مملوء بالجهالات.

والولد بطبيعته شديد الحساسية بالأشياء الجنسية، لأنها تجاوب لغريزة قوية تنتظر فرصة أظهار فعاليتها، وهنا توجد كمية كبيرة من الطاقة الحيوية المدخرة ، يمكن لأتفه الظروف أن تثيرها قبل أوانها ، حتى يمكن تشبيهها " ببرميل من البارود " ، ولما كان من الواجب أن لا تتم يقظة الغريزة الجنسية بصورة فجائية ، بل بتطور تمهيدي طويل ، وتبعاً لنمط معين من الآليات المتتابعة ، ولما كانت دوافع الغريزة الجنسية في حالة نقل وتنظيم ، وصهر ميول قد تم تمثيلها في نمو الغرائز الهضمية (كحب الذات الجنسية) والاجتماعية (عاطفة الرقة)، أمكن اعتبار الطفولة الأولى اللحمة التي ستنسج عليها العاطفة الجنسية المقبلة بكاملها ، وأن كل خيط منها يجب لإثارة غير ملائمة ، قد يسبب اضطرابات شديدة فيما بعد. وعلى هذا يمكننا القول بأن رؤية الطفل الصغير لبعض المشاهد الجنسية تحدث هزة مبكرة في غرائزه بصورة غامضة ومضطربة ولا شعورية ، فتسبب لديه كآبة عميقة مجهولة السبب ، وإنا لنعلم أن الولد السليم يبدي تطلعاً مبكراً نحو الأمور الجنسية ؛

فمتى بلغ الخامسة من عمره بدأ بالسؤال عن أسرار الولادة (كقوله : من أين يأتي الولد) ، ولما يبلغ الثامنة يبدأ ، بصورة عامة يتخيل حالات التزاوج والتلقيح وتنتابه الوساوس لكثرة تفكيره بالفروق العضوية بين الجنسين، ويرى نفسه مدفوعاً لكل الافتراضات والتطورات. وقد لوحظ أن أطفالاً في السنة الأولى أو الثانية من أعمارهم يتلذذون غالباً بملامسة أعضائهم التناسلية ولكن هذه العادات تضعف أو تختفي بين سن الخامسة والثالثة عشرة، وهذا أمر يحدث غالباً عند جميع الصبيان تقريباً، وعند أكثر من نصف البنات؛ غير أن هذه العادة يمكن أن تنسى كلياً أو تدفن في اللاشعور فيما بعد، واستثارة اللذة الجنسية من خصائص الحيوانات الثديية، فالإنسان يشاطر القردة الميل فيما يتعلق بالوظيفة الجنسية الدائمة وفي حيازة الثديين، ولا يعدو الأمر أن يكون عملاً تمهيدياً للفعالية الوظيفية العادية التي ستتبع البلوغ . وتستطيع التربية أن تمنع الحدوث العفوي لهذه المظاهر العادية وقد يكون عملها هذا بتأثير العوامل الأخلاقية السائدة. وقد لا تنجح في ذلك إلا جزئياً، فلا يجب أن يخفي علينا أن الشيء المصطنع هو هذا الزجر الذي تضعه التربية. ويجدر أن لا يعتبر نقيصة أو شذوذاً الشيء الذي ليس هو سوي مظهر عادي للغريزة . وبصورة عامة فإن الجو الذي يحيط به المربون الخطوات الأولى من حب الأطفال للتطلع يوحد بين شعور إدانة النفس والتصورات الجنسية حاملا هؤلاء الأطفال على كبت فعالياتهم المقابلة ومحدثا أمراضا عصبية فيما بعد أو مؤديا بهم إلى ميل نهائي إلى متابعة اشباع الغرائز الجنسية ضمن إطار من الخجل والذلة، وغالبا ما تدفع الشدة

في منع الصلات بين الجنسين بالأولاد إلى عادة حب الجنس للجنس حتي أنهم ليصلون في زمن البلوغ بتأثير أطوار النمو المختلفة التي تتبعها العناصر المذكورة والمؤنثة التي يتألف منها كل شخص إلى أقصى درجات هذا الشذوذ. فطلب اللذة الجنسية عن طريق تعذيب النفس عند الصبيان تضاعف قوة حب الجنس للجنس وتوجهها نحو فجور انفعالي، بينما نراها عند البنات إذا لم يوجهها كبت الغريزة الجنسية تؤدي غالباً إلى الدعارة. فمن واجبات المربي أن يقود بسلام نمو الغريزة الجنسية عند الولد، لا أن يقمعها باعتبارها مظهراً ممقوتاً. فالولد ينتقل عن طريقها إلى البطولة والمحبة والعطف. بعكس ذلك فالغريزة الجنسية الممقوتة تؤدي حتماً إلى الأمراض العصبية، والاضطراب الجنسي والفساد، فواجب المربي أن يترك هذه الغريزة تتفتح بحرية مع ضبط مظاهرها الخارجية ضمن إطار العادات المألوفة والأوضاع المقبولة، كما يجب عليه الامتناع عن التشهير بالأولاد ، كي لا يحدث عندهم شعور الكآبة والانحراف ، وبالتالي ، الشذوذ والفساد . ولا حرج في الإجابة عن أسئلة الولد الاستطلاعية المعقولة ، بتعاليم جنسية سليمة وطبيعية ، ضمن اطار دروس الأشياء العادية ، بما يتلاءم وسن الولد ، ويجب خاصة تخليص الوثبات العاطفية عند المراهقين من انطباعات إدانة النفس المكروهة، والتي فرضتها نظم أخلاقية غير مفهومة بذاتها، بل إنها غير مفهومة من قبل الأولاد أيضاً . ويجب أن لا يغرب عن البال أن أضمن طريقة لإفساد الولد هي تربيته في حظيرة ضيقة من القيود الأخلاقية.

أما فيما يتعلق باستثارة اللذة الجنسية . فقد لوحظ أن الولد إذا ما رأى نفسه يائساً ، قانطاً ، مهملاً، يندفع في ممارسة شذوذه ، بل ربما

مال إلى الإفراط فيه ، يجب اعتبار كل إفراط ، أو كل نضوج مبكر غير طبيعي في هذا المجال ، كدليل على نزاع وجداني يجدر الأسراع بمعالجة . يحدث غالباً أن لا يكون هدف العادة السرية ، عند الصبيان اشباع حاجة شهوانية ، بل كطريقة لإثبات الرجولة (أو نوع من الضمان ضد الخصي) (الخوف المرتبط بآلام نفسية تليدة ، مطبوعة في اللاشعور الجماعي للإنسانية) . وفي هذه الحالة ، إن تهيئة الجو الملائم للغلام لإثبات شخصيته في الأعمال المدرسية والرياضية والرحلات ، وما شابه ذلك ، تكون أشد فعالية في القضاء على ما في العادة السرية من مخاطر أكثر ، من أية وسيلة أخرى . أما الأساليب الآلية في الملابس المانعة ، أو ربط الأيدي فإنها لا تعمل إلا على استثارة الغريزة ودفعها في الطرق المرضية المختلفة ، وهذه هي من الأساليب المكروهة. ويستحسن أحياناً عدم التحدث عنها وإنما يجب السعي لمعالجة حياة الولد العاطفية إلى تثبيت انتباهه في نواح اخرى كاللعب والرسم والغناء وما شابه ذلك. هذه الأمور الممتزجة بحاجة عاطفية يجدر أن لا يعمد إلى قمعها بأساليب قاسية، كما يجب أن تهدف نصائحنا الفعالة الطيبة إلى ايحاء العادات الحسنة والذوق السليم، وقد لوحظ أن التربية المختلطة تحدث تأثيراً ملطفاً في التطلع الجنسي عند الأولاد. أنها تزيل الناحية المثيرة في السر الذي يغلف الجنس الآخر، كما تزيل أيضاً خطأ العلاقات بين الصبيان والبنات، الداعي إلى وجود شعور الضعة والتعويض العدواني أما إذا لم يزل هذا الخطأ في الوقت الملائم فإنه قد يفسد العلاقات بين الرجال والنساء

مدى الحياة. وتبدو علي الولد مظاهر الجنون الجنسي مع ميل إلى استثارة الأولاد الآخرين، فيحسن اتخاذ طريقة المحادثات الصريحة معه، سعياً لإزالة هذا النوع من السراب الجهنمي الذي يبهره. ويندر جداً أن لا يعود الولد ذو التفكير السليم، تحت تأثير جو هكذا، إلى الحالة الطبيعية وأن معظم حالات الشذوذ التي نلاحظها، ناتجة عن الهوة السحيقة التي لمسوها، بين سلاسة نظمنا التربوية وحقيقة متوسط سلوك الرجال.

أما عند البنات فإن الوضعيات الفاسدة قد تؤول بهن منذ سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر، إلى الدعارة، تبعاً للمغريات وتأثير البيئة، ويمكن فيما بعد أن تزول هذه الميول عند حصول حب صادق سليم، غير أن أقل خيبة يتعرضن لها يزيل حالتهن سواءاً . أما عند البنات ذوات التفكير السليم ، فيجب أن تنقضي سبب الشعور بإدانة النفس المتصل بالأشياء الجنسية ، وقلما تخطئ هذه الطريقة ، إذ لما يشعر هؤلاء أن رغباتهم الغريزية ، هي بمثابة شيء قبيح مر ذول ، فإنهن يملن ، لا شعوريا – إلى الوقوع في نوع من الأمراض العصبية ، واستثارة اللذة الجنسية مع تعذيب النفس ، كأنه نوع من الاتفاق بين الخطيئة والعقاب. ويحققن هكذا ميلهن الجنسي بالطريقة المؤسفة التي رسمتها لهن التربية. ولما كان الميل إلى الدعارة لا يتفق مع شعور المحبة فواجب التربية أن تسعي لتخفيف الشعور اللاواعي، لإدانة النفس ، الذي كان سبب البلاء ، وأن توجه الفتاة نحو مثالية للحب الصادق ؛ وهذا آخر أمل لها في النجاة.

الفصل العاشر

الولد الخجول

الخجل حالة من حالات الاضطراب وفقدان التوازن، فالخجول يتلعثم، وقد يندي جبينه بالعرق، ويشعر بجفاف حلقه، ويرتجف، وقد يأتي أعمالاً خاطئة، وقد يحس بألم نفسي كبير . أما الخجل عند الولد فحالة طبيعية إلى حد ما، غير أنه غالباً ما يزداد بعد البلوغ، ومن مساوئ الخجل أنه يعرض الولد المبتلى به إلى اضطهاد الآخرين، سعياً لإبعادها عن نفوسهم فالخجول المضطهد يرى أن حالته تسير من سيء إلى أسوأ ، فيحتفظ من مصاعب طفولته بفقدان الثقة بنفسه مدى الحياة . ينتج الخجل عن سوء التماس مع المحيط الإنساني في زمن تفتح الغرائز الاجتماعية، فالشخص لا يكون عندئذ، وقد وقف على قيمته الحقيقية بشكل يدفعه إلى الثقة، ولا على إمكانياته وميزاته، ولا على حقيقة الغير بالنسبة إليه، وعيش الولد الصغير بين البالغين يحدث عنده شعور ضعة حقيقية لا يستطيع أبداً مساواتهم. ومن هنا تتضح أهمية وجود الولد بين أتراب مماثلين لهه سنا، لتتهيأ له مقارنة نفسه بهم؛ وإن كل شعور بالضعة، حقيقياً كان أم وهمياً، يحس به الولد لدى تماسه الأول مع أقرانه، وبصورة عامة مع البطانة المحيطة به، يجعله يفقد كل ثقة بنفسه، وبالتالي كل أمل بالنجاح .

إن الغرائز الاجتماعية تدفع بالولد إلى تقليد محيطه، لا تشبهاً به فحسب بل لكسب انتباه الآخرين أيضاً ، والحصول على اعجابهم وتقديرهم. وهناك رغبة ملحة لدى الأطفال في التنافس لاكتساب إعجاب الغير، إلا أنه يمكن التخلي عن هذه الرغبة بعد البلوغ. ولو لم يكن الولد مبتلى إلا بشعور الضعة في ناحية ما، لأمكنه الشعور بالنقص والحطة، دون أن تنال من نفسه الكآبة المنبعثة عن الخجل؛ ولكن كل انطباع من هذا النوع يثير بصورة آلية، وبدافع نوع من غريزة تنازع البقاء، انفعالاً للانسجام مع المحيط. و إذا لم يحصل هذا الانسجام تماماً ينتج عن ذلك نزاع داخلي أما رد الفعل عند الخجل فيقوم في بادئ الأمر على انصرافه، في خلوته، إلى الانغماس في أحلام العظمة، حتى إذا ما كان التفاوت بين رغباته وإمكانياته كبيراً ، فقد الولد يذوق فهم الحقيقة، وأخذ يتأفف من الأشياء الواقعية، ملتجئاً إلى عالم الأوهام والتخيلات.

وتلك وسيلة أكيدة لحمله على فقدان توازنه الاجتماعي ، وجعله ناقص التفكير . وفضلاً عن ذلك فإن رد الفعل يحمل نوعاً من الحقد نحو المنافسين الذين يقطعون عليه طريق الحياة ، حقداً مكبوحاً بعامل الزواجر الأخلاقية الغريزية . أن في أصل الخجل دائماً شعوراً بإدانة النفس مصحوباً بشعور عدائي ، وإن ما يجعل الطموح مكرهاً هو الاصطدام بالغرائز الاجتماعية ، بل توجهيه بنوع من الحقد نحو بعض المنافسين . هكذا فإن الخجل مركز لتواتر عميق بين المظاهر العدوانية والتسامح الحكيم، وجميع طاقاته النفسية توجد متجمعة في مجرى ضيق ، بحيث يصبح مستحيلاً عليه ابرازها إلى الظاهر والإفصاح عنها. ومع

ذلك فإن هذا النزاع الداخلي يميل إلى الظهور، فالمحيط من جهة يدرك لا شعورياً وبصورة غريزية، العداوة الكامنة في نفس الخجل فيرد على ذلك بإظهار كرهه ، أما في عالم الأطفال خاصة ، فيأتي رد الفعل بشكل اضطهادات. ومن جهة أخرى، فإن الخجل يجد العزاء بإخراجه نزاعه الدفين إلى الظاهر، وتوجيهه نحو هدف ما. وانه ليتقبل برضى، إلى حد ما، الاضطهادات التي تقع عليه لأنها تزيل شعوره الغامض بإدانة النفس؛ وإذ يصبح ضحية حقيقية فهو يعمد إلى التعويض عن حقده المخبوء ؛ وهذا الأسلوب ذو صلة بالأسلوب الذي يسبب جنون الكبرياء العنيد المشوب بالحر والخوف ، وجنون الاضطهاد . وفي كلتا الحالتين يلاحظ ظهور أحلام العظمة. يستطيع بعض الخجلين التسلط على مظاهر اضطرابهم الخارجية ، أو على تغليفها بحالة مضحكة ومثيرة ، حالة معارضة ومعاكسة ، وتلك طريقة ممتازة لسبق الاضطهادات. ويجب أن لا يغرب عن البال أن الوقاحة والغطرسة تخفيان خوافاً مرضياً من فقدان التقدير، كما أن العجرفة والكبرياء لا يعملان غالباً إلا على إخفاء وجل مقنع . و من الوجهة التربوية ، إن تخجيل المتعجرفين بقصد إعادتهم إلى التوازن ، إذ بهذا تهديم صادع لكيانهم ، وزلزلة لوجدانهم . ويظهر الخجل غالباً في زمن البلوغ ، أو تشتد وطأته في هذا الظرف ، ويعود السبب إلى اتحاد النزاعات الجنسية مع النزاعات الاجتماعية غير التامة الحل ، بحيث تعمل مجتمعة على تحطيم مظهر التوازن القائم ؛ فاحمرار الوجه يدل غالباً على اقتران لا شعوري مع رغبة مجهولة في إثبات الوجود ، ونيل الإعجاب من الجنس الآخر . لقد عالجت مريضاً كان

يبدو عليه الخجل ، وتعلو الحمرة وجهه كلما حدثته امرأة ، ويحدث هنا كبت وتعويض تستحيل أحياناً معالجتها إلا بطريقة فنية دقيقة تستدعي مهارة فائقة . و أولى واجبات المربي هي اسعاف الولد الخجل حالما يكون مضطرباً ؛ وبدلا من التلذذ في مضاعفة ألمه ، كما يفعل كثير من المعلمين والأساتذة ، يجب تطمينه وتشجيعه وحمايته من اضطهاد الأولاد الآخرين . ثم يستحسن حمل الخجل على إدراك حقيقة طموحه ، ومنافسته الحاقدة ، وإدانة النفس التي هو واقع في شركها . وإن النزاع النفسي إذا ما خرج إلى منطقة الوجدان تجرد من كآبته ، وأصبح قابلاً للحل . واخيراً يجب بذل الجهود اللازمة لإيجاد الوسيلة ، لجعل الولد يلمع بشكل ما ، وبالطريقة الأقرب منالاً ، والأكثر قيمة، سواء في بعض فروعه الدراسية أو في ميادين اللعب والرياضة. والخجل الذي يجد الوسيلة لكسب إعجاب محيطه يسير بخطى سريعة في طريق الشفاء. أما معالجة الغددوالطرق الطبية الأخرى فبإمكانها النجاح في الميدان الجسدي ، ولكنها لا تستطيع الوصول إلى جذور هذا المرض .

الفصل الحادي عشر

الولد الجبان

الجبن هو الهيجان الذي يظهر بصورة طبيعية أمام الخطر، فقد يكون الخوف واعياً عند إدراك الخطر بوضوح ، أو غامضاً أمام خطر مجهول ؛ وفي الحالة الأولى فإنه يوحي بالهرب، اللهم إلا إذا كانت شدة قوته تشل الحركة ؛ وفي الحالة الثانية، أي عندما لا يظهر شيء يوجه الانفعال نحو وجهة معينة، فإنه يوحي بالغم والكآبة. لقد لعب الخوف دوراً ثابتاً في تطور الأجناس الحيوانية كعلامة لتجنب الخطر ، وإنا لنرى أبسط المخلوقات البدائية تنفعل حيال الخوف أكثر من جميع الإحساسات الأخرى . وأن الخوف ليبدو كأنه مطبوع في اللاشعور الجماعي للنوع منتقلاً بطريقة الوراثة . فكثير من الحيوانات تشعر بالخوف الفطري من الحية مثلاً ، حتى أن الكلب الصغير الذي لم يسبق له أن رأى حية قط . قد يظهر الخوف أمام حبل شبيه بها ، فكيفإذا كان أمام حية حقيقية ؟ وقد توارثت الإنسانية الخوف الجماعي الذي يلخص جميع النكبات التي تحملتها منذ البداية ؛ والإنسان ، بين الأجناس المختلفة الأخرى . هو المخلوق المطبوع على الخوف من أشباهه، ويرافق الخوف عوارض بدنية مختلفة كالاضطرابات النفسية، واختلال الدورة الدموية، وبرودة الأطراف، وغير ذلك : كالحالات التي تعيد تمثيل ظروف الولادة ؛ وذلك ما دعا " رانك " أن يرى في هذه التجارب الأولى

للحياة مقطعاً صورياً لجميع الآلام السابقة . وقد تأتي عوارض الخوف البدنية شديدة لدرجة تسبب الموت . وفي هذا الصدد فقد أجريت تجربة على بعض الهررة ، إذ أركبت هرة في القطار ، دون أن تكون قد ألفت هذا النوع من الأسفار ، فتكلل بدنها بالعرق أولاً ، ثم عقبه الموت . ويمكن سرد أمثلة مشابهة لدى الإنسان أيضاً : فإني رأيت شخصياً رجلاً قد مات منفعلاً من الخوف عندما قدم لإجراء عملية جراحية له (للفتق) . ويمكن القول أن الخوف ، بين جميع الإحساسات هو أشدها قوة ، أو تأثيراً على النفس ، فهو إذا ما بلغ درجة معينة من القوة يحدث الجمود والشلل ، ويعكس ذلك ، فإن شعور العجز ، ليضاعف ، بصورة بالغة قوة الخوف كما لو كان الشخص مكبلاً بالقيود . يبدأ الطفل بإظهار الخوف منذ فطامه ، ولما يبلغ الثانية أو الثالثة من العمر ، يظهر استعداده للخوف من أتفه الأشياء ثم يتناقص هذا الاستعداد في زمن البلغ ، وقد يتأخر أحياناً إلى الوقت الذي تبدأ فيه العلاقات الجنسية الأولى ، وتدل هذه الخاصية على أن الغرائز الجنسية يمكن أن تلعب دوراً هاماً في خلقه . ومن السهل تفسير استعداد الأطفال للخوف ، إذ أن ضعفهم الطبيعي يجعلهم عاجزين نسبياً عن الدفاع عن أنفسهم ، كما أن قلة خبرتهم في الحياة تزيد بالنسبة إليهم ميدان الأشياء المجهولة . وأخيراً فإنهم يحملون في طيات أعمارهم الصغيرة الاختبارات التاريخية للإنسانية الأولى ، المعرضة لشتى أنواع المخاطر . فالطفل الصغير ، كالإنسان الأول ، مدفوع لاعتبار كل ما في العالم من أشياء كأنها مخلوقات حية ، وإعطائها تأويلات مختلفة . فإنه يرى في كل شيء حوله

كائناً ، أو تصحيحاً يمكن أن يكونا معاديين له ، فتظهر منه انفعالات تدل على الحذر والخوف من كل الطوارئ التي تمثلها بالنسبة إليه الأشياء الطبيعية والبشرية . والخوف ، كسائر الاحساسات ، نظراً للمكان إلى تجعله في النفسية الإنسانية ، يميل إلى الانتقال من هدف إلى آخر . فولد ما ، مثلاً ، قد سبق له أن خاف من القطار ، يمكن فيما بعد أن يمتد خوفه إلى كل ما يصفر ، أو ينفث دخاناً ، أو كل ما يحدث ضجة مماثلة لضجة القطار . والخوف من المجهول أو من الخطر هو قريب من حب التطلع ، ومن لذة الاكتشاف ، حتى لقد أمكن الادعاء أن له حدوداً مشتركة مع اللذة ، بمعنى أن اللذة إذا وسعت اختلطت مع الخوف ، وأن الخوف ، بأخف درجاته ، يشتمل على شيء من اللذة الصرفة . وقد برهن التحليل على أن بعض الأحلام تشير إلى الانتقال من حالة إلى أخرى .

ولما كان الأطفال شديدي الاستعداد لتقبل انطباعات الخوف . كان فيها للمربين وسيلة فعالة للتأثير عليهم . كما أن كثيراً من المرضعات ومربيات الأطفال ، والآباء الجاهلين يستغلون هذه الحالة ، إما لنيل الطاعة والهدوء ، وإما لأهداف شخصية جائرة . لقد جرت العادة أن يحاط الولد بأنواع مختلفة من الخرافات والأساطير المخيفة ، كقصص المرضعات والخادمات عن الغيلان والعفاريت وغيرها ، التي تؤثر تأثيراً شديداً على نفسية الولد ، وتثبت ميوله الصبيانية ، بصورة دائمة ، والتي كان يجب أن تزول عادة عند تقدمه في السن، لولا هذه التربية المصطنعة الخاطئة . وعندما تتجاوز درجة الخوف المقدار القابل

للاحتمال يصبح التمثل النفسي عاطلاً عن العمل . وقد لاحظ كثير من الباحثين نتائج هذه الأساطير المسببة لاضطرابات خطيرة ؛ لذا يجب أن نبعد عن عقلية الأطفال كل ما يمس النواحي المخيفة في قصص الجن والعفاريت وأمثالها . وقد لوحظ إن كل تماس بالمسائل الجنسية يحصل مع الولد بصورة سابقة لأوانها (سواء هذه القصص الرمزية ، أو المشاهد المفاجئة ، والعروض أو الملامسات التي يتعرض لها غالباً الأطفال من الجنسين) يحدث كآبة خاصة يمكن تحولها إلى نوع من الخوف. ومن الجلي أن الغريزة المثارة قبل أوان تفتحها العادي، بشكل غامض صعب الادراك وبالتالي مؤلم ومخيف فالمرء يخاف الشيء الذي يجهله، أو الذي لا يستطيع فهمه ولا تشخيصه. أن كثيراً من مخاوف الأطفال تعبر عن استجابات لغرائز ما زالت مغلفة بالظلام ، وإن كان هؤلاء الأطفال لا يفهمون هذه الاستجابات بعد ؛ يخاف الصغار من الأمور الجنسية إذ تبدو لهم غامضة ومخيفة ، كما نخشى نحن الموت ، ما دام مجرى تجارب الحياة لم يكن قد هيأنا لمجابهته . وهكذا فإنا نرى هنا صلة نفسية بين الخوف والتلذذ ، وبين التلذذ والمت ، كان باستطاعتنا أن نجد هنا تنويراً جديداً لآية الميل العميق لحب العذاب الممهد للذة الجنسية . وبقدر ما يكن الولد المسيطر على مخاوفه واثقاً بنفسه ، شجاعاً يكون الولد الذي يغلبه خوفاً مدفوعاً إلى اندفاعات سلبية كالهرب والرعدة ، مع شعور الحاجة " بشكل تعيض " إلى إلقاء خوفه على كائنات أخرى ، الميل للتعذيب ، تخويف المخلوقات الأضعف منه وهكذا فالولد الموجه بهذا الشكل نحو التلذذ بالتعذيب الممهد للذة

الجنسية سيضاعف مضاره ، وينشر بدوره الحالات العصبية عند الأولاد الذين قد يوكل إليه أمرهم فيما بعد . أن الأجيال التي تتناقل هذه العدوى تكون شرسة ومبتلاة بضعف الأعصاب والاضطرابات النفسية. إلى هذه المصائر المؤسفة تؤدي في نهاية الامر، تلك القصص " البريئة " عن العفاريت والغيلان ولا شيء أشد سخفاً من التربية المبنية على الخوف . والطريقة الناجعة في تبديد مخاوف الطفل الجبان هي في أخذه بلطف وتؤدة ، واطمئنان لا كتشاف مصدر مخاوفه ، ويجب أن لا نغضب إذا رأينا أن هذه التجربة لم تفعل فعلها المرجو عند الولد ، كما يجب أن نعلم أن الخوف ، إلى حد ما ، هو قدر محتوم للطفولة ، وأن سن الرشد ، عادة ، هي المرحلة التي يجب أن تتخلص من شره إذا لم يسأ توجيهها إبان الطفولة . والأجل تخفيف الخوف يجب أن نعمد إلى إيضاحات ملائمة ، مع وجوب العلم أن وراء الخوف الظاهر خوفاً مكبوتاً ، وأن هناك مشكلة كامنة ، وأحياناً لا شعورية . هنا لا بد من قدرة فنية ، وخبرة كافية ، لتتبع الكآبات والانقباضات النفسية المتصلة بهيجانات غامضة كالتي تكلمنا عنها .

الفصل الثاني عشر

الولد الطائش

من الخطأ تسمية الولد القليل الانتباه " بالطائش " ، لعدم استقراره تفكيره في الموضوع إلى يعرض عليه. فتشتت الفكر بمعناه الصحيح ناشئ عن فيض في الحركات والأعمال، ولا يدل على أن الولد يتخلى عن الفعالية العقلية والجسمية للانتباه، بل أنه أكثر من ذلك، يعبر بهذا المظهر عن ثورة داخلية. والغرابة ليست في كون الولد النشيط والشديد الحساسية، العاجز عن حصر انتباهه في نقطة معينة، والشديد الحاجة إلى الفعالية اللازمة لمن هو في سنه، في أن يبدي تشتتاً في الانتباه حيال واجباته المدرسية، وإنما الغرابة في وجود كثير من التلاميذ يتتبعون الدروس بانتباه شديد، قد يعجز عنه معظم الكبار المبتعدين عن الجهود العقلية، أي غير المتمرنين على الأعمال العقلية، والمضطرين إلى الأصغاء ساعات طويلة إلى دروس لا تثير اهتمامهم. ولا يخفى ما يتخذه المحاضرون من العناية والاحتياط لحمل المستمعين على حسن الأصغاء، كما لا يخفى أيضاً ما تبذله الصحف ومحطات الإذاعة من العناية في تنويع المواضيع، وجعلها شيقة جذابة ضمانا لحسن انتباه القارئين أو السامعين. وفي رأينا أن الانتباه العفوي الناتج عن الرغبة خير ألف مرة من الانتباه الأرادي. ولا شيء أجلب للانتباه كالأمور التي تمس الشعور والعاطفة والقلب. وأنا لا نجهد نفسنا لفهم نظرية وهضمها إلا إذا كان

ذلك بدافع حبنا لذاتنا تحت شكل رياضي، أو لإحساسنا بشعور المحبة نحو الأستاذ. وفي هذه الحالة ليس فهم الدروس إلا وسيلة للاشتراك العقلي مع الشخص المحبوب وقد دلتنا التجارب على أن التلاميذ ينهمكن برغبة في بعض الدرس ، أو ينفرن منها تبعاً للحب أو الكره الذين يوحي بهما المدرس . وما تشتت الفكر إلا عبارة عن انعكاس فعل لانفصام الروابط النفسية ، وفي هذا الصدد فإن مدرسة "جانه" تتحدث عن التقهقر في الطاقة النفسية التي إذا أزيل نابضها ، وأصبحت عاجزة عن ادراك الهدف ، بدأت تصرف في ميادين نشاط ، منحرفة تائهة . وليس من الصعب أن نجد عند الولد الطائش عناصر للعدوان والضغينة ، فما الطيش إلا احتجاج مبطن بالسخرية المعادية، إذ يهزأ التلميذ من أستاذه ، معلناً عليه الحرب ، بوسائله الصغيرة الميسورة ، وضمن الحالة الوضعية التي يوجد فيها . وهنا فإن البداهة ، وفيض الحيوية الطبيعيين إذا ما خرجا من ميدان العاطفة نشرا نتائجها بشكل " الطيش " . فالولد يكون مدفوعاً إلى حالة التمرد ، أكثر من أن يكون مختاراً لها ، إذ لا يعود بوسعه التصرف بشكل آخر ؛ أمأ إذا ثبطه أي شعور بالنقص فإنه ، مع احتفاظه بحبه لمعلمه، يستطيع أن يلهو بشتى الأساليب، دون أن يشوش الصف وفي هذه الحالة فلا تهمل معاقبته أصلا ، حالما يرى أنه لا يتابع الإصغاء إلى الدروس ؛ ولا ريب فإن هذا مما يرهف احساسه بصورة أكيدة . ومن جهة أخرى ، فلا يجعل الولد الطائش لنفسه مكاناً مرموقاً بين وفاقه ، بتسليتهم وجلب انتباههم بحركاته الهزلية المضحكة ، وحتى بنواله بعض العقوبات أيضاً. ولا بأس لديه مهما كانت النتائج ، إذ

يكفيه أن يكون موضوع انتباه رفاقه ؛ فطالما فاته التفوق في الدروس والامتحانات ألا يجدر به أن يتفرد في أمر ما حتى ولو كان في تمثيله أدواراً مكروهة ؛ وليس الطيش وحده لدى الولد الرديء هو الذي يجعله يصادف الصعوبات في دروسهن بل لأنه لم ينجح بها ، ولأنه يحس بشعور النقص، فيدفعه حب التعويض عن خسرانه وخجله إلى إثبات وجوده بأي ثمن كان . فلما يرى الطائش أن تقدير أساته ووالديه قد فاته، ولما يرى أنه أصبح معروفاً بطيشه ، يأخذ بالعمل على كسب تقدير أترابه في ميادين الأخرى ؛ فيجد في التعويض ما أستطاع إلى ذلك سبيلاً ، لكي لا يكون عاطلاً ومتأخراً في كل شيء . وقد تكون في تصرفاته هذه محاولة للشفاء النسبي في ميدان الغرائز الاجتماعية . فالطيش يعبر إذا عن ميول فوضوية هدامة ، مع نوع من الحقد والضغينة والغيرة ، كما يعبر أيضاً عن ألم معنوي حاد . ومن الواضح أنه لا يمكن تخفيفه والقضاء عليه عن طريق القسوة والعقاب ؛ وقد دلت التجارب المدرسية الطويلة على أن العقوبات لم تستطع يوماً تحوير الولد الطائش وتحويله إلى تلميذ نجيب. ومع ذلك ، فهناك حالات بدأ فيها الأولاد ، رغم طيشهم الظاهر ، أنهم قد أدوا أعمالاً مدرسية ناجحة . ويمكن تفسير هذه الحالات بأن الأولاد يحملون كرهاً للمعلمين وتنافساً نحو رفاقهم أكثر من تأخرهم وضعفهم في واجباتهم المدرسية . وغالباً ما يتألم هذا النوع من الطائشين مما يشعرون به من ضعة عائلية ، أو اجتماعية أو غير ذلك ، لا من نقص عقلي .

يترتب إذن على المربي البصير أن يتعرف ، قبل كل شيء . نوع

الشعور بالضعة ، والنقص الذي يشكو منه الولد بصورة لا شعورية . ويجب بذل ما هو بالمستطاع لحمله على الشعور به بصورة واعية ، والأخذ بيده إلى سبل النجاح. و إذا كان مقصراً في دروسه وجب بذل كثير من الجهود بتؤدة وصبر طويل ، لمحو الانطباعات السيئة الراسخة في ذهنه. وقد يكون النجاح أكيداً، إذا أخذت التدابير اللازمة قبل استفحال الأمر ، وانتقاله إلى حالة مزمنة. وغالباً ما يزول الطيش عندما يجد الولد نفسه أنه قد سلك سبيلاً طبيعياً وسليماً ، لإثبات وجوده في ميدان من النشاط، يضمن له احراز بعض النجاح، وأنه قد تصل إلى التفاهم مع ممثلي السلطات والنظم الاجتماعية.

الفصل الثالث عشر

الولد الأرعن

يجب أن لا نخلط بين الرعونة والطيش، فالرعونة هي حاجة ملحة للفعالية الناشطة، وهي تظهر بشكل حركات قوية مستمرة. وقد يكون الأرعن منتبهاً ومحافظاً على النظام خلال وقت ما، غير أن نشاطه الحاد المضبوط وقتاً طويلاً ينفجر إذا فرض عليه طول الانتباه، وعندئذ فإن إحلاله بالوضع المفروض عليه يعتبر طيشاً. أما الرعونة فتكون مصحوبة بنية حسنة، وتتميز هكذا عن التمرد الدائم أي الطيش. فالولد الأرعن يبدي استعداداً طيباً للانتباه ولكن ضمن حدود إمكانياته القصيرة المدى، غير أن هذا التمييز لا يمنع من اتحاد الرعونة والطيش وامتزاجهما بأشكال مختلفة. ومن الواضح أن الولد بحاجة إلى الفعالية الجسمية أكثر من حاجة الراشد إليها، وأن ابن العاشرة لا يستطيع أن يعيش على نمط من الحياة يعيش عليه أبن الأربعين أو الخمسين. وإن كثيراً من الآباء لنسيانهم ما كانوا عليه في السن نفسها، يعتبرون ولدهم أرعن ولو كان بوضع طبيعي تماماً. وإذا أردنا دقة في الحكم على رعونة الولد وجب أن نقارنه بالوضع الوسطي للأولاد الذين هم في سنه. أما الهدوء النسبي الملحوظ عند كثير من الأولاد فهو لا يشير بالضرورة إلى كونهم في حالة طبيعية تلقائية، وإنما يشير إلى سهولة تطبعهم بطباع الكبار حتى ليمكن القول أن الرعونة إلى درجة ما، هي خير من الهدوء غير الطبيعي

الملحوظ عند الأولاد الذين تفسدهم التربية التقليدية .

ولا يخفي أن في بعض الطبائع ميلاً إلى الحدة بصورة شاذة ، فمن الممكن في هذه الحالة ، أن تكون هناك عوامل أخرى كالوراثة والتوازن الغددي ، بصرف النظر عن كل عامل نفسي ، تعمل على زيادة الاندفاع في الحركة والفعالية ؛ ولكن حب التطلع الشديد ، والرغبة الملحة في التماس مع العالم بشتى الأساليب الممكنة ، والرغبة في معرفة كل شيء واختباره ، والتدخل في كل أمر ، كل ذلك مما يسبب الرعونة ، وفي الوقت نفسه ، يدل على طاقة حيوية كبرى ، وينبئ بصورة واضحة عن مستقبل الولد . ولا يخلو من الفائدة أن نلاحظ كيف أصبحت حالة أشخاص في سن الأربعين ، بعد أن كانوا في طفولتهم من أشد الأولاد رعونة وحيوية ، آخذين بعين الاعتبار جميع الأسباب المتأخرة التي عملت في تغيير سلوكهم ، ومع ذلك ، فليس من المستحيل أن تظهر الرعونة في حالات أخرى كمظهر أساسي لعدم القدرة على الرقابة الإرادية، أو كضعف " الأنا " الواعي أمام أعمال الغرائز . وهكذا فإن رعونة الطفولة لا تكشف هنا إلا عن شيء من نسبة التوازن بين الدوافع الغريزية البدائية ، والقدرة الدفاعية السلبية في الغرائز الاجتماعية . وتبعاً لمساوئ النمو المقبل فإن هذا الأسلوب النفسي قد يوحي بفعالية خصبة، أو بضعف ما حيال الأهواء (بينما أن هذين الأمرين هما على أتم التلاؤم من جهة أخرى) . وعلى كل حال فالولد الأرعن ، بدافع حدة طبعه ، يشعر بصعوبة احترام الأوامر والنواهي التي تفرض عليه ، فيقال إنه متمرد . وفي الوقت نفسه فهو لا يستطيع ضبط تطلعه الطبيعي فيبدو

" طلعة " راغباً في البحث عن كل شيء ومعرفة كل خفي ؛ وهذا ما قد يسبب محاذير كثيرة في اقتصاديات البيت الذي لم يتخذ الحيطة اللازمة أمام هجوم هذه القوى البدائية . وعندئذ فإن الآباء – دفاعاً عن نمط حياتهم الشخصية وراحتهم المشروعة – يأخذون بمحاربة الرعونة والطيش عند الولد بأساليب قد لا تكون دائماً عادلاً وملائمة ؛ أما الولد فبعد أن يكون طيشه بريئاً ، تدفعه هذه الأساليب الخاطئة إلى الرغبة في التمرد والانتقام ، فتثير طيشه ، وتزيده حدة بصورة لا شعورية ، فيصبح عندئذ ولداً شرساً ومتمرداً حقيقياً . فيجب أن يكون هدف المربين ، من تدخلهم في اصلاح الولد الأرعن ليس جعله سهلاً ليناً بالنسبة إليهم ،بل تجهيزه بالسلاح اللازم له للحياة الجديدة التي يدخل فيها . يحب أن يفكروا في امكانياته الحاضرة والمقبلة ويستحسن ترك أوسع مدى ممكن للنشاط الفائض ، والحيوية الملتهبة عند الأرعن ، بأن يفسح له مجال كاف في مكان ملائم له ، لا توضع فيه أشياء سهلة الكسر ، أو لعب سريعة العطب ، أو أشياء قد يسبب كسرها أذىً له ، وبقدر ما تترك له الحرية الكافية لإظهار حيويته واستنفادها ، يستطاع عند الحاجة حمله على الهدوء والانتباه في زمن التعليم . ومن جهة أخرى ، فإننا نستطيع – عن طريق تناوب هذه الفعالية المزدوجة ، العقوبة والمراقبة – تنمية الرقابة الإرادية عند الولد وملكة الهدوء . ويجب أن نتحاشى الوسائل الزجرية القاسية لأنه إذا لم يستطع تحملها ينقلب بسرعة ويذهب مجهود ناسي . كما يستحسن أن تحدد له بالضبط مواعيد التطبيقات المطلوبة منه وكم من الأمهات من يمنعن أبناءهن عن الاشتراك في الألعاب

المألوفة لمن هم في سنهم ، وذلك لخوفهن الوهمي من أن يحصل لهم حادث ما ؛ كما أن بعض الآباء يرسمون خططاً طويلة من الموانع والنواهي لأولادهم الذين لو تقيدوا بها لواجب عليهم ملازمة حالة الخمول والجمود بصورة تامة ؛ ومن جهة أخرى ففي كثير من الحالات لا ينتبه الآباء إلى أن أوامر متناقضة ، وقد فاتهم أن الأوامر التي لا تتناسب مع طبيعة الأطفال وأعمارهم لا يستطيعون تنفيذها ، فيظهرون عندئذ بمظهر التمرد والعصيان . ومن الجهالة أن نجهد في أبعاد الولد دائماً عن كل المخاطر ، إذ لا شيء يعدل اختباراً مزعجاً يعانيه الولد بنفسه ، (إلا أن يكون شديد الخطورة) ، ليوحي له بضرورة التفكير والانتباه . ويلاحظ كثيراً أن الأولاد الذين تترك لهم حرية التصرف باللعب ، والتعرض لبعض أخطاء الأطفال هم أقل الأطفال وقوعاً في المخاطر . وفضلاً عن لك يجب أن نطبع لعبة بطابع اجتماعي ، أي أن نرغبه في الاشتراك في اللعب مع غيره من أترابه ؛ والكشفية خير مثال في هذا الباب . وهكذا فإن الغرائز الاجتماعية المهذبة تستخدم كمسكنات للحدة الفائضة ، وكعلاج ممتاز للرعونة .

الفصل الرابع عشر

الولد الصعب

إن كلمة صعب رغم احتمالها لمعان كثيرة، نحتفظ بها عادة لإطلاقها على الولد الذي يمتنع عن تناول كل ما يقدم له من أنواع الطعام، مبدئيا اشمئزازه واحتجاجه على الكثير منها. فمنع الحليب عن الطفل عند الفطام، للتعويض عنه بأطعمة جديدة يلزم التعود على قبولها ومضغها، يبدو شديداً عليه، ومسبباً لنفوره ورفضه. وللطبيعة وسائلها لإثارة شهية الطفل ورغبته بشكل يجعله يتقبل برضى الجهد اللازم حيال الوضع الجديد، أي اضطراره لتهدئة جوعه. وقد يحدث أن لا توجد هذه العوامل المثيرة سواء لمرض هضمي وهو كثير الحدوث في هذه المرحلة من حياة الطفل أو لسوء تصرف المربين وهذا كثير الحدوث أيضاً. كثير من الأمهات يفخرون بكون أبنائهن ذوي أجسام سمينة، غير مدركات بما تخبئ السمنة من المخاطر؛ بل قد يذهبن إلى أكثر من ذلك فيسعين إلى إرغام الولد بشتى الوسائل على تناول أكبر كمية ممكنة من الأطعمة، حتى إذا ما عارض الطفل المسكين أو رفض تناولها، أخذن يتذرعن بفنون من المغريات والوعيد لتشتيت انتباهه وحمله على قبولها. وبدلاً من أن تكون الأطعمة مثار رغبة الطفل وشهيته فإنها تصبح مشحونة بانطباعات كريهة تتركز في نفسه حتى تصبح كأنها طبيعة ثانية ، فلا يجد بداً من الخضوع لها. هذه الأخطاء التربوية المتعلقة بالكمية الغذائية تقوم

بأكبر قسط في جعل الولد "صعباً" وربما أضيف إليها أخطاء "نوعية". أن للكائنات الحية غريزة صادقة تهديها إلى اختيار أطعمتها ؛ ومما يدعو إلى الدهشة حقاً، ما نلاحظ عند الحيوانات من قوة حاسة الشم التي تدفعها إلى تجنب الأغذية السامة. وإن كنا لا نتطلب هذا القدر من غريزة الطفل الصغير ، فإننا نرى من الحكمة انتظار الطبيعة، لتوجيه ميله إلى الأطعمة التي تلائم حاجاته الجسمية. ومن الملحوظ أن الأولاد يميلون إلى الأطعمة الحلوة أو الغنية بالمواد الكولستيرنييه كالحليب والزبدة والبيض . ويبدو أن هذا النوع من الأطعمة كثير الملاءمة لهم .

يلاحظ أن بعض الأطعمة التي نبدأ بالميل إليها بعد الأربعين هي غير مقبولة عند كثير من الأطفال كالسبانخ والقنبيط واللفت والبصل وما شابه ذلك، وعلى هذا فكلما كان جهل الآباء لنظام الأطعمة كبيراً اشتدت رغبتهم في فرض الأطعمة التي يحبونها على أولادهم. إذ من المتعارف لديهم أنه يجب "تعويد الولد على حب كل شيء" ، وكأنهم هم أنفسهم يحبون كل أنواع الأطعمة . ويؤخذ من هنا أن ميولهم اللاشعورية تدفعهم إلى طبع أبنائهم بطباعهم وأذواقهم الشخصية؛ ومن جهة أخرى فإنهم يمنعون عنهم كل ما يرون فيه أذى على (زعمهم) فالأمهات يحاربن نقيصة النهم، والآباء يعتبرون الأطعمة التي يرغب بها الولد كأنها تحمل محاذير صحية عديدة ؛ وفي هذا الميدان تختلف الآراء كثيراً في الحكم على أنواع الأطعمة، وتعيين أفضلها صحياً . يعتقد كثير من المربين أن الولد بسبب كونه ضعيف التفكير، يجب أن يكون دائماً على خطأ، ويرون من واجبهم تقويم أخطائه، و إذا ما كنا أمام حالة ولد "صعب"

وجب أن نتساءل أولاً : أليست هذه النقيصة هي الانعكاس المحتوم لسوء تصرف المربين ؟ وهذه النقيصة، إذا ما استقرت عند الولد، فإنها تعبر عن رفض الفطام، أي رفض كل جهد تتطلبه الحالة الجديدة والاحتجاج ضد كل حرمان؛ وغالباً ما يبدأ الولد بالتقزز من الأطعمة إذا شعر بنقص في عواطف المحبة نحوه ، أو العناية به ، أو عندما يرى نفسه مبعداً عما يرغب ؛ وفي هذه الحالة، فإنه لا يرفض ما تقدم له بقدر طلبه لما يمنع عنه؛ وذلك لشعوره الشديد بحرمانه من شيء ما مع أنه لا يستطيع معرفة هذا الشيء بوضوح تام. إذا مر طفل في السادسة أمام بائع الحلويات ،مثلاً لا يستطيع إلا أن يطلب شيئاً من الحلوى ، وأن يبكي إذا منعت عنه، حتى إذا نزلنا عند رغبته حار في اختيار النوع الذي يريده، وبعد أن نعطيه مما طلب تضعف رغبته في أكله، فنقول عنه أنه "صعب"، دون أن نفهم ما يدور في داخل نفسه من الانفعالات. فعندما يشعر الولد أن امتناعه يزعج والديه، يميل إلى استخدامه كوسيلة للانتقام والضغط: وخاصة إذا وعد بهدية مكافأة له على تناول طعامه. وما الامتناع عن الطعام إلا الحالة النموذجية للمقاومة السلبية؛ اما الأضراب عن الطعام فينشأ عن ميل غريزي عميق. ولكي نفهم جيداً المضمون العاطفي لهذا السلوك يجب أن نتابع امتداده عند البالغين؛ فنرى عند الذين لم تشبع رغباتهم، أو لم تؤمن مطاليبهم، توسع أنواع مختلفة من الاضطرابات الهضمية.

لقد تحدث الدكتور بول فاريز كثيراً عن الأمراض "النفسية للقناة الهضمية" مبيناً كيف أن عدداً من أمراض المعدة والأمعاء، سواءاً الوهمية

منها والحقيقية، تكون ناتجة عن اضطراب عاطفي، تعبر عنه في البداية ثم تنتهي إلى أخذ مكانه نهائياً. فالذين لم تؤمن حاجاتهم، بصورة تتلاءم وبداهة اندفاعاتهم العاطفية، يمتنعون عن تناول الغذاء، كما لو كانوا يرفضون الحياة. هذا هو الأساس النفسي الذي يوجد عند الكثيرين من الأولاد الصعبين.

ومع ذلك ، فالاضطرابات الهضمية عند البالغين كثيراً ما تدل على مضمون جنسي يفسر معنى رفض الأطعمة، الذي يحدث عند البلوغ فقط، والي قد يؤدي إلى خور مميت، يسميه علماء التحليل النفسي "الفقدان العقلي للشهية" وهذا النوع من المرض النفسي يحدث تقريباً عند البنات بين السادسة عشرة والعشرين من العمر، بسائق رفض لا شعوري لوظيفه الأمومة المقبلة. أما رفض الأطعمة عند الرجال فليس كرهاً بها لذاتها وإنما يكون بدافع خوف سوداوي من التسمم والموت. فالواجب الأول على المربي أن لا يحشو الولد حشواً بالأطعمة الكثيرة ، وليعلم أن اضطراباً عابراً قد يشفى عادة بالصيام بضعة أيام دون أن يضر بالصحة شيئاً ؛ ولا بد من الإشارة هنا أنه يوجد ، في هذا الصدد ، كثير من الأوهام العالقة في الأذهان ، والتي يجب تبديدها. ويمكننا القول عن الولد الذي يرفض طعاماً ما، لا بأس بتركه جائعاً، حتى ولو تكررت هذه الحالة أياماً متتابعة. لقد وصفت هذا الأسلوب مراراً، فنجح نجاحاً باهراً ، إذ أن امتناع الولد عن الطعام لم يتجاوز الثلاثة أيام، ولا يقصد هنا الحالات الخطيرة لفقدان الشهية العقلية. يجب اعتبار رفض الطفل للطعام كأكثر الأشياء بساطة ، مع الأحتزاز من تهويل أمره ، أو اللجوء

إلى اللوم كأكثر الأشياء بساطة مع الاحتزاز من تهويل أمره ، أو اللجوء إلى اللوم والتهديد أو إظهار المخاوف. وإذا رفض الولد بعض الأطعمة فمن الحمق الضغط عليه لحمله على تناولها باسم المبدأ أو النظام بل يجب التساهل والسماح له بالامتناع؛ ومع ذلك فلا ضرورة لتكييف الأطعمة وفق هواه فالجوع، ورؤية الطعام محبباً ومرغوباً ممن حوله، كل لك يؤثر تاثيراً لا يستهان به في تخفيف اشمئزازه، أكثر من أي تدبير زجري، مع الافتراض أن سبب الامتناع عائداً إلى أسباب نفسية لا إلى عوارض جسمانية. وبعكس ذلك ، إذا بدأ الولد كثير المطالب، في أوقات الطعام، ورفض أن يتناول طعماه في الوقت المناسب، ثم عاد فطلبه بعد قليل فيستحسن ألا تلبي رغبته التي هو نوع من المساومة ؛ وإنما يجب في الوقت نفسه ، تجنب التهديد والقسوة ، لأن في ذلك اظهار اهتمام بالغ بصفاته الشاذة. وبالجملة يجب أن لا نرهق الولد الصغير بقسوتنا، كما يجب أن لا نخضع لمحاربته في فرض سيطرته المعنوية. ولا يغربن عن البال أن الولد الصعب إنما يشكو من نقص عاطفي يجدر البحث عنه ومعالجته، وفيما عدا هذه الحالة الهامة جداً، لا يوجد حالة أخرى تستدعي اهتمام المربي إلا تقديم الطعام كشيء مرغوب، بل كتقدير وتكريم، لا كفرض وإكراه . إما إذا لم يفلح هذا المسعى ، فربما كان الأمر إلى بداية مرض عقلي خطير، أو مرض جسمي، وفي هذه الحالة يجب الإسراع في مراجعة الطبيب المختص .

الفصل الخامس عشر

الولد القذر

تبدأ تربية عادة نظافة بين السنة الأولى والثانية من العمر؛ فإذا تعلم الطفل، منذ هذا الحين ضبط نفسه وعدم توسيخ ثيابه بالبول والبراز توجه نحو عادة النظافة مع التفريق بين القذر والنظيف. ومنذ الحين الذي يبدأ فيه الولد بملاحظة أوساخه، يأخذ بإظهار اشمئزازه منها، باعتبارها شيئاً مكروهاً. ولكي نجعل الطفل ميالاً للنظافة يجب أن نحلمه على الشعور برقابة ذاتية كامتلاك قوة جديدة . ينشأ الاشمئزاز من القذارة تدريجياً ، في الشروط العفوية . أما إذا حاولت المربيات استعجال تربية عادة النظافة فقد ترافقها انطباعات سيئة . و إذا شعر الطفل ، بين انطباعاته الغامضة بما يشبه الضغط الشديد ينشأ لديه ، مع الميل للبقاء في حالة القذارة ، شعور بالاحتجاج والعدوان ؛ ويكون ذلك له وسيلة لمهاجمة من يحيطون به . ومن الطبيعي أن يكون هذا بعيداً ، في ذكريات الكبار ، حتى أنهم لا يستطيعون استعادة ذكراه ، مهما جهدوا في دراسة سلوكهم ؛ ويكفي ، في هذا المجال ، ملاحظة سلوك الحيوانات لإيضاح جلية أمره ؛ فالكلب والهر ، مثلاً ، يوسخان أحياناً الصحون التي لا يجدان فيها الطعام المرغوب ، كما يوسخان الأبواب المغلقة التي تمنع عليهما الدخول . كذلك يفعل القرد الحبيس إذ يوسخ غالباً الجدران ببرازه . فهذه الملاحظات تساعدان على فهم الأسباب التي تجعل جدران بعض

البيوت في الريف موسخة بالبراز البشري ، كما تدلنا على القيمة الغريزية العميقة لبعض الفظاظات الكلامية التي تثيرها مشاهد هذه الأقذار ؛ ونستطيع أن نعرف ، الآن ، الأسباب التي تدفع بالمعتوهين إلى نشر أقذارهم هنا وهناك ؛ فالقذارة ، للغريزة ، وهي وسيلة للأذى وتعتبر عن الكره والحقد ، كما أن التوسيخ البرازي شيء كثير الحدوث عند الجنود في الحرب . من الواضح أن الانطباعات الكريهة عند الطفل المتصلة بواجب ممارسته حاجاته الطبيعية بنظافة، تدفع بسير غرائزه إلى الوراء، نحو المرحلة الأساسية، حيث كان التبرز يستدعي تحقيق حاجة جديدة لعمل حيوي وفي هذه الحالات، يبقى التوسخ مرتبطاً بنوع من التلذذ العنيد، ويشتمل على انجذاب إيجابي، فيظل الولد قذراً زمناً طويلاً ، تغطية البقع الوسخة ، أو يلوث أصابعه بالمداد؛ هذا بعد أن يكون قد تخلص من عادة التوسيخ في ثياب ؛ ثم يقوم لديه فيما بعد، مكان هذا التوسيخ، حال جديدة، هي الميل إلى الفوضى والبلبلة؛ غير أن عادته البرازية القديمة المدفونة في غياهب الغريزة ، تستطيع العودة إلى الظهور إذا وقع يوماً في حالة من الخبل ربما تدفعه أيضاً إلى أكل اقذاره . أن العودة إلى التوسخ تبدو كنقطة قصوى للتقهقر ، كما لو كانت القذارة نقطة انطلاق جميع الحاجات الحياتية . وكذلك فقد ظهرت القذارة سابقة لكل حالة اجتماعية (هي أو مرادفها : الفوضى) كتعبير لنوع من مقاومة الواجبات الاجتماعية ، أو كنوع من إرادة الانفلات من النظم والقيود . فالولد ، الذي يقع في تراجع من هذا النوع يتوصل عندما يكبر إلى تقنيعه وتغشيته. غير أن غرائزه الاجتماعية تتعدل متأثرة بذلك. أما

من الوجهة الاجتماعية فإنه سيحتفظ بأوضاع أنانية حاقدة ؛ وأما من الوجهة الجنسية ، فإنه سيحتفظ بأوضاع أنانية حاقدة : وأما من الوجهة الجنسية ، فإنه سيلون رغباته ويطبعها بطابع قذر ؛ وقد يوجهه امتزاج هذين الميلين نحو نوع من أنواع شهوة التعذيب، تمهيداً للذة الجنسية .
وإذا لازم الولد الميل إلى القذارة ، كان ذلك بقية غير ناضجة من تراجعه القديم ، ولكنه يجد لذلك نوعاً ثانوياً للاستخدام إنه يستطيع أن يرمي من وراء قذارته الخارجية المرئية، إلى انطباع إدانة النفس الاجتماعي، أو الجنسي، شاعراً بانه أقل ذنباً في كون أظافره قذرة، وثيابه ملوثة من أن يظهر شعوره العدائي نحو الآخرين بصورة واضحة. فإن في نقل سواد النفس إلى ظاهر البدن والثياب، تفريجاً وسلوى. ولو لم يستطع الغم أن يجد مخرجا لتحوله إلى قذارة، لما كان مفهوماً سبب كون الحزن عند الأقدمين مبعثاً للرغبة في التمرغ في الرماد ، وعند المتمدنين ، موجباً للاكتساء بالملابس السوداء ، ولما استطعنا أيضاً أن نعرف لم إذا كان بعض التائبين ملزمين بنيل قدسيتهم عن الدمن والأوضار وتعريض أجسامهم للقمل والبراغيث ، كما لو كانت أرواحهم لا تنال طهارتها إلا بالدرجة التي تنغمس فيها أجسامهم بالأقذار والأوساخ . فنجد في التوسخ ، إلى جانب العدوان ، نوعاً من التوبة والأمل في الغفران .
وهناك أيضاً مظهر نفسي آخر للقذارة ؛ وهو أن بعض الآباء ، وغالباً ما تذهب رغبتهم ، بشكل ملح ، إلى فحص المواد البرازية عند أبنائهم ، جالبي ، بذلك ، انتباههم إليها في الزمن الذي كان يجب أن يجبهم فيه التطور الطبيعي لغرائزهم ، نحو مواضع أهتما أخرى ؟ ولما يلاحظ الولد

أنه يملك لأشغال أوليائه وسيلة من أقوى الوسائل التي يستطيع ابتداعها ، يمضي في استخدامها بدافع ميله لإثبات غرائزه الاجتماعية ؛ كما أنها قد تقوم مقام العرض الجنسي ، عند الطفلة ، بالدرجة التي تتعلق بها البرازات في الجسم نفسه ، وخاصة في جزء من البدن ، قريب من المنطقة التناسلية و إذا لم تصلح يقظة الغريزة الجنسية السليمة هذه الحالات يرى عند الراشدين سلوك مرضى عصبي ، كما يرى عند العوانس ، اللواتي يملأن الأرض كآبة وانقباضاً . وكذلك يلاحظ ، عند الصبيان ، وخاصة عند البنات ، أن انقباضاً شديداً يرافق ، أحياناً ، الكبت الجنسي في بدايته ، بل أنه يقوم مقامه في بعض الحالات . وقد تكون القذارة الظاهرة ، عند غيرهم ، وسيلة لإظهار الشخصية ، أي كنوع من العرض العدواني ، عندما يزعج الأهل ؛ وقد يكون ، في الوقت نفسه ، موجهاً ضد النفس أيضاً ، إذا كان ينال من قيمة الشخص نفسه . أما التبول في الفراش فيحمل معنى نفسياً خاصاً؛ فربما كان مبعثه سبب عضوي؛ وهناك عوامل طبيعية أخرى كالبرد والخوف وغيرهما، ويحمل التبول في الفراش معنى جنسي، وخاصة عند الذكور. وهنا فإن السلوك الحيوانات، أيضاً معنى جديراً بالملاحظة: فالكلاب ترفع قوائمها في أثر الأنثيات كعمل للإثبات الإيجابي. وتظهر عند الصبيان في زمن البلوغ بعض الألعاب بادئة بمباريات في التبول ثم تنتهي إلى أعمال جنسية، وعند البنات أيضاً فإن التبول يحمل طابعاً ذا معنى جنسي . وإذا ما وضعنا الأولاد العاجزين عن ضبط بولهم تحت تحليل نفسي دقيق سوف نميز نوعاً من العرض الجنسي، معترضاً بشكل عدواني، لما استطاعوا أن

يكتشفوه من حياة والديهم الخاصة. ويجلب الولد بواسطة هذا العارض (التبول)، انتباه الكبار نحوه بنوع من الصور الجنسية، كوسيلة وحيدة يستطيعها، وفي الوقت نفسه يحملها أيضاً نوعاً من الانتقام، لأنه يرغمهم على عملية تنظيف لا يستطيعون تكليفه بها. ونظراً لما تضعه الغريزة في ذلك من معنى كهذا بصورة عميقة ولا شعورية، كان رد فعل الآباء متضمناً قسوة شديدة، ورد فعل الأبناء شعوراً عميقاً بإدانة النفس. وبسبب هذا المعنى الكامن نفسه، فإن الجدات يعلن للولد المبتلى بالبول في الفراش حسب العادة المألوفة، أنه لا يستطيع الزواج أبداً، فيسببن بذلك تقوية النزاع اللاشعوري عند الولد، مع إيجاد جرثومة أمراض عصبية في نفسه قد تهدد مستقبله . وكان بالاستطاعة إزالة المعنى الجنسي للتبول في الفراش لكوتة ، غالباً ما يزول في زمن البلوغ ، وقلما امتد إلى ما بعد ذلك. وقد لوحظ أن أولاداً لازمتهم حالة النظافة ، منذ السن الطبيعية ، قد عادوا إلى التبول في الفراش بعد أن أعيدوا للنم في غرفة والديهم ، وأن آخرين قد انقطعوا فجأة عن هذه العادة السيئة ، حالما بدأوا يقاسمون أمهاتهم الفراش ، ثم لما أعيدوا إلى النوم في غرفهم الخاصة عادت إليهم عادتهم الشاذة . وهذا يساعد على تأويل العارض الذي يتقارب ، مع مظاهر القذارة الأخرى بالقيمة النفسية المرتبطة به حتى ولو نشأ عن ضعف عضوي . وكذلك فهو يتقارب منها بمعنى كونه عملاً عدائياً ، وفي الوقت نفسه ، موجهاً ضد النفس ، ونوعاً من العرض . ويجب أن يكون عمل المربين وقائياً ؛ ويجدر عدم الاهتمام كثيراً بتثيت انتباه الولد على وظائفه الطبيعية. كما يجب تجنب الضغط الشديد لا

كراهه على (الخروج) في وعاء الليل (الأرضية) مثلاً ؛ أما إذا أظهر الولد ، بصورة عفوية ، اهتماما شديداً بالأشياء البرازية ، فيجب عدم الانسياق معه في هذه الناحية ، كما يجب ، أيضاً ، أن لا يوجه إليه لوم سديد خشية أن يؤول ها إلى تحويل انشغاله الطبيعي نحو عوض أشد صلابة (كالبخل وجنون الجمع ، وما شابه ذلك) ، بل يكتفي بجلب انتباهه نحو مشاغل أخرى ، مع تأثيث تفكيره بصورة مختلفة الألوان ... أما الولد الذي يمتنع عن الاغتسال ، أو يتوسخ كثيراً ، فيجب أن نعلم أنه قد أوذي ، في الزمن الذي كان يجب عليه اكتساب عادة النظافة فيه ، ولا يمكن استعادة هذا التطور المفقود ، عن طريق الزجر والعقاب وإنما يمكن الوصول إلى ذلك بتحبيبه كل ما هو نظيف وجميل، ولا سبيل لنكران صعوبة هذا المسعى وعقم نتائجه ، لأن الحالة قد أصبحت مزمنة قديمة العهد وكامنة في أعماق اللاشعور ... وغالبا فإن تفتح الغريزة الجنسية منذ البلوغ يأتي برد فعل ضد القذارة، فيرى المراهق أنه قد أصبح متطرف النظافة، ومشغولاً دائماً بالعناية بمظهره وهندامه. وتشاهد هذه الحالة عند بعض المبتلين بحب الجنس للجنس، في الزمن الذي يمركزون فيه ميولهم في العمليات الفاجرة. وقد يأتي الانقلاب أحياناً ناقصاً سامحاً لظهور بعض الفوضى والقذارة في حدود بعض الأشياء أو بعض الظروف. وأحياناً ، فإن حب الأشياء المستعملة، ينقلب إلى ورق مطبوع على حب الأشياء القديمة، من كتب وثياب وغير ذلك ، أو إلى تذوق الاعمال التي تلوث الأيدي ، كصناعة الفخار والتماثيل والدهان، ولا تخلو جميع هذه التحويلات من الفوائد الاجتماعية، أي أنها لا تعتبر

كنقائض تستدعي اللوم، ولكنها ليست دائماً فألا حسناً لأنها قد تؤدي إلى بعض الأمراض العصبية ؛ أما قليل من الفوضى والإهمال فيمكن تحملها بسهولة من قبل الشخص نفسه، وممن يحيطون به. ولا يجب أن نقابل حالة الولد القذر بكثير من الشدة والقسوة، إذ يمكننا الاعتماد على التطور الذي قد يحدث معه على مرور الأيام على التحولات السارة التي يمكن أن تحدث في زمن البلوغ . أما فيما يتعلق بعدن ضبط البول ، فالمهمة شاقة ، والنتائج غير مضمونة ، سواء في ميدان الطب العام ، أو الطب النفسي ، وأن من الدقة بمكان إخراج الميول الجنسية الكامنة إلى عالم الشعور ، وخاصة عند الولد الصغير . ومن جهة أخرى ، فإن هذا التنوير ليبدو قليل الفائدة ، إذ لا تستطيع الإرادة التدخل أبداً في حالة الرقاد ، أي عندما يحدث العارض الذي نحن بصدده . وكذلك فليس من علاج ضمين للنتائج مهما أعطتنا أساليبنا الطبية المختلفة من النجاح في بعض الحالات ... بقى أن نشير إلى ضرورة تجنب الأخطار التي يرتكبها معظم المربين : فلا نوحي للولد بشعور النقص ، بل نعمل على تطمينه بأن عارضه سيزول يوماً ، وخاصة عندما يكبر " بدلاً من التصريح له بأنه لن يستطيع الزواج أبداً " ونتجنب توبيخه ومعاقبته ، بل الأجدى أن تظهر عدم الاكتراث في هذا العارض ، معتبرين أنه شيء صبياني ، لا يستحق الاهتمام . وهكذا نستطيع الاطمئنان بأن الشر سوف لا يتفاقم ، مع الأمل الشديد بالوصول إلى نتائج مرضية .

الفصل السادس عشر

الولد الميال إلى الهروب

يستخدم جزء كبير من الاختبارات النفسية لدى الطفولة لاكتساب فهم الواقع والممكن، فبين انطباعات المرحلة الأولى من العمر، التي يبدو لها كل شيء خارقاً ومدهشاً، ويمكن الحصول عليه بمجرد الرغبة فيه، وبين التعقل المتشكك إبان البلوغ، نرى الرجل بعد اجتيازه ثورة البلوغ، وفورة الشباب، يتعلم قياس المسافات التي تعرضها له الحياة من الأشياء الملموسة، مع النسبة المئوية لآماله وحظوظه. أما النظرة الواقعية فهي صعبة القبول جداً، حتى أن أشد الناس صلابة لا يزالون يشعرون بحاجة إلى الاسترسال في عالم الأحلام، فالولد بحاجة إلى اللعب، أي إلى حلم موضوع للتمثيل على مسرح تزينه زخارف مختلفة الألوان، ناطقة بالإيحاء. وأن الولد مهما كانت قوة الهيجانات المحسوسة لديه في اللعب، لا يفقد كلياً الصفة الخيالية لفعاليته، غير أن أقل تنبيه يعيد إلى ميدان الواقع. ولكن هناك بعض الحالات، حيث تكون ملكة التمييز في شيء من الاضطراب فتمحي معه الحدود مدة من الزمن . وما السير والتكلم أثناء النوم إلا حالة خاصة منها أما الميل إلى الهرب والانطلاق ، فهو حالة أخرى أكثر شيوعاً. تحدث غالباً قرب البلوغ بشكله التام؛ غير أنه يظهر، منذ الخامسة أو السادسة من العمر، بشكل هروب خارج البيت، دون أي هدف معلوم في الظاهر. فالهروب يحدث لتحقيق بعض

المغامرات العظيمة التي يحلم بها ؛ وهو ، إذ يبدأ بعمله هذا، لا يحمل من عناصر تحقيقه وإيصاله إلى ميدان الواقع والحقيقة إلا بعض مقدمات تمهيدية (كقليل من النقود ، والغذاء ، والتجهيزات الأخرى التي تكون غالباً غير كافية لمتابعة الغاية المنشودة) وهو يستطيع أيضاً أن يتصور بوضوح المراحل المتتابعة التي سيجتازها للوصول إلى مبتغاه ، فيترك مجالاً واسعاً للأقدار، وخاصة فهو لا يفكر بشيء فيما وراء حالة، من الحالات التي يسعى إليها، غير عابئ بما سيأتي . فهذا النقص في الإدراك والتقدير ، لا يعود فقط إلى قلة خبرة الولد ، لأنه لا يتفق تماماً مع الذكاء الحقيقي الذي يتمتع به ، بل أنه يدل على الطابع المضحك في الهرب . قد يغادر غلام في الرابعة عشر من عمره بيت والديه، مثلاً ، ليضرب في الآفاق؛ فيذهب بمال ضئيل، وزاد قليل، غير

متبصر في وسائل السفر التي يجب أن يستخدمها، وغير عارف بما يمارسه من الأعمال، في حين أنه يجب على فتى في هذه السن، وهو سليم الذكاء والتفكير، أن يتبصر بتعقل وروية، فيما وراء مغامرته من مصاعب وأهوال .. وهكذا يظهر الطابع النفسي الشاذ في الهرب : إنه اتجاه نحو الأحلام، بل لعب بمثابة حقيقة، وقد يتفق أن تمر فترة على الهروب، خلال تنفيذه خطته حيث يعود فجأة إلى صوابه، وتظهر له بوضوح المصاعب التي تنتظره، ثم يأتي الخوف من اللوم والعقاب فيزيد في تعقيد ما نبقى من أعماله؛ ويجب أن نأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار عن تفسيرنا لمعنى الهرب . وقد يكون الهرب أول نذير لاضطرابات عقلية خطيرة ، كالصراع مثلاً ، أو الجنون المبكر ، وما شابه ذلك ؛

ولكنه " أي الهرب " يشكل ، في الوقت نفسه ، حادثاً بسيطاً وسليماً نوعاً ما ، إنما يشير إلى ميل نحو الخيال والاحلام متلائم مع تطور نفسي طبيعي .

أما الصفة التشخيصية للهرب عند المراهقين ، فغير مجهولة لدينا . ولكن الشيء الذي لم يعط الأهمية اللازمة فهو حدوث الهرب بتأثير شعور نقص العطف نحو الهروب ؛ فغالباً ما يدفع إلى ذلك شعور الولد بإهمال والديه لشأنه ، عند ولادة أخ أو أخت مثلاً . أو بعض الظروف المسببة للغيرة والحسد ، أو صدمة في ميادين الصداقة والحب والغرام (إذ يجب أن لا ننسى أن المراهق عرضة لهذه العلاقات) . وكما أن الراشدين إذا ما عاكسهم القدر ، ومنوا بالفشل ، يلجؤون إلى الأحلام ، لتخيل فوز تعويضي، أو يلجؤون إلى سحر الخيال طالبين العزاء والسلوى في الفنون والمخدرات، ... كذلك الولد القانط ينصرف عن العالم الواقعي إلى هذا المزيج من اللهو والعمل أي الهرب . فهو يهرب في ميدان الأحلام ، بل الأصح أنه يحاول تحقيق الحلم الذي يساكن نفسه في الميدان العملي . ولا شك أن عناصر هذه الأحلام مستقاة من المطالعات والمشاهد التمثيلية ، أو السينمائية ، التي تؤثر تأثيراً كبيراً على الولد ، كما تؤثر الأحلام التي تأتيه في المنام ، أو أنها تشبهها ، إلى حد بعيد ، في كونها منتقاة لتتلاءم رمزياً مع الرغبات المكبوتة والغرائز الجائعة . ويمكن أن نلاحظ أيضاً أن هذه المخططات للهرب لها دائماً طابع تراجعي، وهي تمثل بشكل مجازي العودة إلى الطفولة الأولى. وقد لا يستغرب أن يتضمن الهرب مقدماً ميلا إلى السياحة بدلاً من هذه

الذكريات. ويوجد أيضاً في مخطط الهرب ، كما في الحلم العادي استذكار لحالة سابقة ، وتعويض رمزي لحاجة غير محققة . والولد الميال إلى الهروب لا يتردد أحياناً عن السرقة في سبيل إعداد العدة لمغامرته كالمال والدراجات وما شابه ذلك، ويجب اعارة هذه السرقات نظرة خاصة فالولد لا يملك شيئاً ولا وسيلة لتحقيق أمر هام ، فيرى أن يحصل على هذه الوسائل من أوليائه الكبار ، وفي هذا الزمن ، حيث يسبح الولد في عالم تغمره الأحلام ، لا يميز بوضوح الفرق بين طلب الشيء أو أخذه ، وخاصة لأنه يكون في حالة يضعف فيها الشعور بالحقيقة والواقع . ومن جهة أخرى ، كان عليه ، سعياً لضمان حلمه . أن يهمل هذه الاعتبارات ، لأنه لو أهتم بها لكان لديه التبصر الكافي ليعرف أن الوسائل الضرورية لتحقيق خطته ستمنع عنه حتماً . أن الحلم لشديد الإغراء ، وإن الحس بالواقع لشديد الضعف ، فكيف يستطيع تجنب ارتكاب العمل الممنوع ؟ .. وما السرقة ، حيال التراجع العاطفي الذي يمثله الهرب دائماً ، إلا استجابة لفهم الغرائز الهضمية ، كما أنها تدل أيضاً على اكتساب قوة جديدة .

ومن الطبيعي أنه يجب تحليل أجوبة الهروب على الأسئلة التي توضع له بعناية تامة ، لمعرفة سبب هربه ، فتراه على الغالب محمولاً لتصور أسباب يظنها محقة ، بدلاً من الاعتراف بغموض الدوافع التي خضع لها للقيام بعمله . وربما كانت الدوافع العاطفية مكبوتة ، وهكذا تستحيل عليه معرفتها بنفسه . غير أن أكاذيبه واختلافاته ، ربما تكون كاشفة عن حقيقة حالته العاطفية ، ولكن بشرط أن نعرف المداخل

والاتجاهات التي يجب أن نلجأ إليها ، خلال المداورات والتبديلات التي توحي بها . أما إذا كان الولد صادق السريرة ، أو إذا شعر أن سره بات معلوماً ، فلا يتردد عن الاعتراف بصدق التفسيرات التي نعرضها عليه. على أنه ليس من الضروري ، ولا من المفيد التعمق في هذا البحث لغير الفنيين في الموضوع . ويكفي أن نعرف أن الهروب هو دائماً ولد قد أخفق في ميدان الواقع ، فذهب ينشد حلماً ، معوضاً عن خيبته في إطالة حياته ضمن هذا الحلم . ومن الجلي أن العقوبات التشهيرية التي تخبئ ورائها الأسر جهلها ، ومسؤوليتها أحياناً ، لا تعمل في أكثر الأحيان إلا على زيادة حالة الولد سوءاً ، وإبعاده عن العالم الواقعي ، مع تأخير عودته إلى التوازن الطبيعي . وأن أهم شيء بالنسبة للولد هو السعي لإعادته نحو الواقع .

و إذا ما أزيلت أسباب غيرته وحسده ونقمته ، كان المفتاح الذهبي في تعلقه بذويه تعلقاً شديداً ، مع استعداده لتقبل إيحاءاتهم والتأثر بها . ويجب ألا يغرب عن البال أن الأسباب التي تدفع الولد إلى الهرب غالباً ما تكون صبيانية ووهمية ، وأنه ، للوصول إلى عمل ناجح في الإصلاح والتربية ، في هذا المجال ، علينا ألا نتخذ أساساً لعملنا تقدير المربي ، بل ما يحس به الولد وما يراه من خلال زاوية نظره الخاصة .

الفصل السابع عشر

الولد ذو الحركات العفوية

إن العادة العفوية حركة آلية ، غير إرادية ، يتكرر حصولها دورياً وقد يمنعها الانتباه أحيانا ، ولكن لوقت محدود . يمكن إدخال كثير من عادات الأولاد الرديئة في هذه الزمرة كمص الأصابع مثلاً ، أو الأشياء الأخرى ، أو قضم الأظافر . أو إدخال الخنصر في الأنف الخ .. أما لو شئنا تعيين وصف خاص لهذه العيوب ، لرأيناها تقارب حركات الوجه الهزلية ، وأمثالها مما يشكل العادات الآلية المعروفة . وتدل هذه المظاهر بشكل واضح على قوة الميول الآلية ، لأن أقل ضعف في الإرادة ، أو الانتباه ، يساعدها على الظهور ، ولا تستطيع الرقابة الواعية منعها أكثر من بضع ساعات أحياناً ، دون تأثير على طاقتها أو نفوذها . ويمكننا أن نضيف بعد أن فهمنا معنى هذه الحركات الآلية ، أنها تدل أيضاً على قدرة الغريزة ، لأنها تمثل نوعاً من العمل المرتبط مباشرة بها . وقد تنشأ هذه العادات الآلية من التوقف المفاجئ لأعمال غريزية إبان عملها الطبيعي ، تحت تأثير ضغط ما ، سواء أكان خارجياً (حرماناً من بعض الأشياء أو تهديداً) ، أو داخلياً (شعوراً بإدانة النفس أو خوفاً) بدلا من استنفاد طاقتها في عمل طبيعي ، عند الحاجة ، وإمكانها من تقبل التطور والتقدم بعد افراغ طاقتها. لقد سبق أن تقصينا حالة الولد الذي يمتص أصابعه أو أقلامه ، مدة سنوات ، لأن فطامه المفاجئ قد

ترك ميله للرضاعة معلقاً ، دون أن يقضي عليه ، وهذا هو الشكل الأول للغريزة الهضمية . وهنا تبدو العلاقة بين السبب الغريزي والعارض واضحة حلية ، فلا يمكن نكرانها ، كما يمكن وجودها في جميع الحالات الأخرى ، مهما بدت معقدة . وبينما نرى مص الأصابع وغيرها يبدأ منذ المهد ، فإن عادة قضم الأظافر تبدأ غالباً متأخرة ؛ وتعبر هذه العادة عن نزاع في غريزة المقاتلة الهضمية من جهة (مرحلة ظهور الأسنان) والاجتماعية من جهة أخرى. أن وظيفة الأسنان في الطبيعة ، ليست للتغذية فقط ، بل لدعم المخاصمات دفاعاً وهجوماً ؛ كما أن الأظافر من جهتها هي ، عند الولد ، وسيلة هجومية ، كما في المخالب عند الحيوانات ، لأنه يستعملها أحياناً للمقاتلة . وما عبارة " له أنياب ومخالب " إلا شاهداً على المعنى الهجومي لهذه الأعضاء ، وهكذا يمكننا أن نفهم السر من قضم الأظافر وكونه دليلاً على هجوم منقلب على النفس (أي العض الموجه للشخص نفسه) ونوعاً من التخلي عن السلاح (نزع المخالب) ؛ وتدل هذه العادة على نزاع شديد بين الضغينة (والتي تكون غالباً حاسدة) والنواهي الخلقية التي تأمر بعدم المهاجمة . ويحدث غالباً في مثل هذه الحالات ، أن الغريزة ، المكبوحة بصورة مفاجئة ، لا تستطيع الاكتفاء بتعليق فعاليتها ، إنما تقلب معناها وفعاليتها نحو الشخص نفسه . ولا يصعب أن نلاحظ أن قضم الأظافر عند الصغار ، وحتى عند الراشدين المبتلين بعادته ، قد تضاعف فعاليته كلما دعت الحاجة إلى إثبات الوجود في مباراة ما (كاجتياز امتحان مثلاً) أو إذا كانت الغيرة مثارة بأي شكل من الأشكال ؛ وهذا العارض

هو أكثر حدوثاً عند الصبيان لأن ميل العدواني عندهم هو أكثر نمواً ايضاً . وكلما تقدم الولد في السن اكتسبت العادة معاني إضافية ، وخاصة ، كقمع الغريزة الجنسية . ولهذا كان التغلب عليها صعباً بسبب كثرة هذه المشابهات ...

إن كثيراً من الحركات الآلية في الوجه ، أو أعضاء الجسم الأخرى ، أن هي إلا دلائل مخففة للغضب أو الحقد أو التمرد ، وبصورة عامة ، لأي مظهر آخر تمنعه الأخلاق . تبدو هذه المعاني جلية في العادات الآلية البارزة عند البالغين ، مرفوعة غالباً بشتائم وسباب ، وعندما تظهر هذه العادات الآلية في ذلك ناحية من الجسم ، أو حكها أو تتخذ نهجاً نسقياً موزوناً ، فهي تنبئ عن دوافع جنسية مكبوتة ، ويجب اعتبارها غالباً مرادفة للعادة السرية ، وهكذا هي عادة حك الرأس أو إدخال الأصابع في الأنف ، (وهذه العادة هي أكثر حدوثاً عند البنات) أو التمايل ، أو هز الجسم بمختلف أنواعه . ومهما كانت المعاني الغريزية للعادات الآلية ، فهي تبقى دائماً لا شعورية ، عند الشخص المبتلى بها ، وأن إخراجها إلى حيز الوعي يزيد ، بلا ريب ، نفوذ الرقابة الإرادية وقوتها، غير أنه لا يكفي لإزالة العارض تماماً لأنه يميل إلى التثبت بواسطة العادة والتكرار ؛ ولا يمكن إزالته نهائياً إلا إذا انتهى النزاع الأساسي في الميدان العاطفي (وذلك يطول أمر تحقيقه) أمكن الحصول على توجيه مرض ومرغوب، أما العقوبات التي تفرض على الولد المصاب بهذا العارض ، فهي عديمة التأثير فضلاً عن أنها تزيد الشعور بالنقص ، وبإدانة النفس ، المرتبطين بالنزاع الأساسي في اللاشعور ، كما

أنها تضاعفت قوة هذا النزاع حتى يتحول إلى كآبة وانقباض نفسي ، معدة صاحبها لأمراض عصبية في سن البلوغ . ومن الحمق اللجوء إلى الإرادة لمكافحة العادات العفوية . ويمكن الاستفادة إلى حد بعيد من تحويل هذه العادات إلى السلوك الطبيعي بطرق كثيرة ؛ فالولد الذي يمتص أصابعه ، مثلاً ، يمكن أن يعطي مصاصة، ومن هنا انتشرت عادة استعمال الممصات عند الصغار " حتى إذا كبر شعر بشدة الميل إلى التدخين . أما الذي يقضم أظافره فيستحسن أن يهدى له مبرد صغير ومقص للأظافر ليستطيع تحويل عادته المكرهة إلى عناية خاصة بأظافره . أما العادات العفوية ذوات الطابع الجنسي فإنها تزول عادة منذ بداية النشاط الطبيعي للغرائز المقابلة . وكلما كان التدخل مبكراً كان الأمل بنجاحه كبيراً . أما القضاء على عادة عفوية فهو عمل يتطلب زمناً وصبراً طويلين ؛ وهنا أيضاً فإن الواجب الأول للمربي ، يقضي أن لا يزيد الخرق اتساعاً .

خاتمة

تدابير تربوية جماعية

لا تتحقق التربية في نطاق الأسرة فقط كما لا يمكن تحقيقها عن طريق المدرسة وحدها. بل لا بد من تعاون الاثنتين مع المجتمع على أداء هذه المهمة. فالمعلم في المدرسة ، والأولياء في البيت لا يتمتعون بالتدريب النفسي الكافي، ولا بالوقت اللازم والوسائل الضرورية ليستطيعوا الاهتمام المطلوب بدراسة شئون الأولاد دراسة تامة وفهم نفسياتهم ، لذا يتحتم على المجتمع أن يضاعف اهتمامه دائماً في القضايا التربوية التي عليها مستقبل الإنسانية بكامله، وأن يعمل على إيجاد المنظمات والإصلاحات التي توحي بها مكتشفات علم النفس الحديث .

إن الكثير من الاضطرابات النفسية التي تفسد حياة الرجال كالخلل الفردي وفساد الأخلاق والأجرام وما شابه ذلك كان بالاستطاعة تجنبها لو اتخذت التدابير الإصلاحية اللازمة لهؤلاء البؤساء ، منذ الطفولة ، مع التقيد ببعض قواعد صحة النفس ؛ ومن الطبيعي أنه كان يجب أن تكون الحالات الصعبة مدار اهتمام الاختصاصين اللامعين وتدخلهم . وللوصول إلى هذه الإصلاحات فغن دور المنظمات العامة الاختصاصية ، يتفوق ، جد التفوق على إمكانيات الأسر وعنايتهم . ويحسن أن لا نهمل اضطراب المزاج الذي يظهر عند الولد ، معتبرين أنه رعونة صبيانية

، لأن اضطرابات من هذا النوع – إذا لم يؤبه لها منذ الطفولة ، بحيث لا يزال الظرف ملائماً للإصلاح – أدت إلى خلق رجال ناقصين ومطبوعين على الأذى . فلو تبذل جهود كبيرة لمعالجة حالات مرضية مختلفة الحدة والنوع ، للمحافظة على أشخاص مرضى ، لكان خيراً ألف مرة من أن تبذل هذه الجهود في سبيل منع الشر قبل حدوثه ، أي للمحافظة على أشخاص أصحاء" وقد قي : الوقاية خير من العلاج". يجب أولا تطبيق الأنظمة التي تمنع العقوبات البدنية؛ ويجب حمل الأسر على عدم اللجوء إلى العقوبات الجسدية في تربية الأبناء كما يجب عليهم أيضاً السهر على منع التلاميذ الأقرباء من الاعتداء على رفاقهم الضعفاء أو الجبناء. وعلى أسرة التعليم أن تلغي من مناهجها التربوية : التخويف والتهديد والتخجيل وجميع الإيحاءات السلبية أما الأولاد الذين لا تؤثر فيهم مطلقاً النصائح العادية ، فيجدر أن نجري لهم اختبارات نفسية خاصة ، يرسلون بعدها إلى معاهد خاصة منشأة لمن عن في مثل حالتهم.

ومن الفائدة بمكان أن ندخل في المناهج لمن هم الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرهم من الأولاد . وفي نطاق العلوم الطبيعية مبادئ سليمة وأولية عن الأمور الجنسية لكي نعوض بمعلومات بسيطة صادقة، عما يتناقله الأولاد من معلومات خاطئة وخطيرة أحياناً، عن هذه الأمور، حالما لا يجد تطلعهم "وهو عام وطبيعي" التفسيرات المفيدة. وبعكس ذلك، يستحسن أن نجنب الأطفال سماع القصص والخرافات المخيفة، لكي لا نغذي بها ديهم ميولاً كامنة قد يكون في إثارتها خطر على مستقبلهم . أما التعليم المختلط فله فوائد ومزايا نفسية كبيرة في مجال

تفتح الغرائز الجنسية. وأما الأولاد الذين يبدو منهم سلوك شاذ، أو يقصرون في انتاجهم المدرسي، فيجب أن تجرى لهم فحوص طبية تهدف خاصة إلى فحص أعضاء الحواس، وإلى فحوص نفسية. وأن على الجامعات ، ومؤسسات علم النفس ؛ أن تضع برنامجاً خاصاً لعلم النفس ، وعلم الأمراض النفسية البدائي ، لجميع الأشخاص الذين سيختصون في الاهتمام بالأولاد ؛ على أن يعطي لهم في نهاية اختصاصهم، شهادات تثبت دراستهم وكفاءتهم .

أما الأنتساب إلى الوظائف التربوية ، فيجب أن لا يكتفي بإخضاعه لمعلومات نظرية كهذه، فحسب ، بل إلى اختبارات نفسية فنية ، نفسية تحليلية ، بغية العمل ، بدن شفقة ، على رفض أو اخراج كل من يرى فيه عيب ، أو نقص في النفس أو الخلق كعصبيي المزاج وسوداوي الطباع والموتورين والقلقين وما شابه ذلك ونرى أيضاً ، أن تكرر عملية هذه الاختبارات ، بصورة دورية خلال حياة المربين المسلكية ؛ ولا نرمي من وراء ما هبنا إليه ، استقصاء أخطائهم ، ولا المبالغة في تتبع حياتهم الخاصة إنما نهدف إلى اختيار نخبة صالحة ، بعيدة عن الأهواء والمفاسد ، لتكون جديرة بحمل أمانة تربية النشء. أما التهيئة النظرية — فيما يتعلق بمادة علم النفس . فيجب أن لا تهمل شأن الطفولة الأولى ؛ كما يجب أن لا يغرب عن بالنا أن عدم انتظام التغذية أيام الطفولة الأولى ، بالإضافة إلى أساءته للغرائز الهضمية وميولها المتعددة قد يترك شعوراً عميقاً بالحرمان المرير الذي ربما ينشأ عنه فيما بعد أمراض عصبية خطيرة . وبقضي علم النفس بالاهتمام بغذاء الطفولة الأولى ، وجعله

دقيق التنظيم، مع نظام لطيف ليستطيع الفطيم تقبل الجهود الجديدة التي يترتب عليه بذلها في سبيل وثبته الحيوية ، بدلاً من أن تفرض عليه فرضا بشكل أليم بغيض . فيجب تعليم هذا ، الأشخاص المهتمين بتربية الأطفال ، ليستطيعوا ، أيضاً هم بدورهم ، تعليم تدريب الأمهات الشابات . ويجب أن نحارب ، بشدة لا هوادة فيها ، الدعايات المغرضة الهدامة التي تقوم بها بعض الممرضات لدى الأمهات لإقناعهن بأفضلية طريقة اللجوء إلى الرضاعة الاصطناعية مع دلالتهم على أنواع معينة من الحليب المكثف أو المجفف ، مدفوعات إلى ذلك بأغراض نفعية مادية .

وحبذا لو كان بالإمكان تأمين فحوص طبية واختبارات نفسية فنية ، ونفسية تحليلية ، في معاهد التعليم الثانوي والعالي ، ومعسكرات العمل ، وحتى في الثكنات أيضاً . ويجدر بكل شاب وكل فتاة أن يستفيدا من تعاليم التوجيه المسلكي ، لأن انسجام المهنة مع الشخصية والقابليات ، فضلا عن كونه سبيلاً هاماً للنجاح ، هو أيضا عامل ممتاز للصحة النفسية . ويجب أن يأخذ هذا التوجيه بعين الاعتبار أيضاً، العوامل العاطفية التي توجه الجهود وتعوض النواقص الأساسية الجوهرية . ويستحسن أن يجد كل تلميذ ، عندما يشعر بالحاجة ، المستشار النفسي المختص ليتلقى عنه النصائح والآراء المفيدة ، كما هو الحال في بعض المؤسسات الأميركية . والمجرم من الاحداث يجب أن لا يعتبر السجن ، بالنسبة إليهم كمكان للتعذيب أو التكفير ، أما بالنسبة للذين يبدون غير قابلي الإصلاح ، كالفاسدين طبيعة وأصحاب السوابق

وأصحاب الشذوذ الخطر، فيستحسن أن يكون بمثابة مرآب يجمع فيه الأشخاص الأردياء ، فيمنعون عن الأذى ويستخدمون في أعمال نافعة ، فيقوم مقام مستشفى للتحليل النفسي ، وورشة موضوعة تحت الرقابة ، وأما الأشخاص الين يرجى إصلاحهم وشفاؤهم النفسي ، فيكون السجن لهم مركزاً حقيقياً للإصلاح الاجتماعي ، حيث يتلقون عناية خاصة في العلاج النفسي ، وتأهيلاً لمهنة ما ، مع ضمان وجود عمل لهم عند خروجهم النهائي ؛ على أن يكون هناك مستوصف للصحة العقلية ، ليظل على أتصال دائم بهم ، بحيث يراقبهم بانتظام لمدة طويلة ، خلال حياتهم الحرة . أم الدعارة ، وخاصة للدي القاصرات ، فيجب أن تكافح أكثر مما يجب أن تعاقب . وان الوقاية من الأمراض التناسلية ، عن طريق الأنظمة والقوانين لهي طريقة ضعيفة الفعالية ، لأن القاصرات لا تستطيع الرقابة أن تنالهن دائماً .

وقد لوحظ ، من جهة أخرى ، أن ذوات الاختصاص وخاصة من بعض الطبقات ، هن أقل خطراً مرضياً من الشابات الموظفات في المكاتب أو العاملات . والأشد من ذلك ، أنه ربما آلت الأنظمة إلى الحكم على النساء بالدعارة الدائمة بل والإجبارية تقريباً ... وتكافح الدعارة بتعليم مهنة شريفة إلى البنات الأمهات مع تقديم المساعدة اللازمة لهن . أما من الناحية النفسية فيجب اعتبار الدعارة مرضاً عصبياً لا جرماً خطيراً وكلما خففنا من إحاطة الدعارة بإطار من المذلة والانحطاط، قل ميل النساء العصبيات إلى الدعارة الفاجرة. و إذا كان يستحيل إخضاع جميع هؤلاء إلى المعالجة الطبية النفسية ، فيمكن على

الأقل القيام بتحقيق التدابير الاجتماعية عن طريق اجراء اصلاح خلقي جمعي، يرتكز على معنى القيمة الشخصية والنجابة والحب . وعلى المجتمع أن يساهم أيضاً بقسط كبير من اصلاح الأولاد غير العاديين ، وتتطلب هذه المهمة الجليلة برنامجاً واسعاً للعمل بوساطة المنظمات والمؤسسات العديدة .



الفهرس